الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
Emir Abdelkader University of Islamic sciences
Constantine

كلية: كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية
Faculty :

قسم: الجذع المشترك
Departement :

عنوان المطبوعة

Title of the Dissertation

☑ مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة:
السنة الأولى ل م د
Academic Pedagogical Publication Addressed to:

☑ السداسي:
Semester :

☑ الميدان: التاريخ الإسلامي : السيرة النبوية
Domain:

☑ الشعبة:
Field or subfield:

☑ التخصص: التاريخ الإسلامي
Specialization:

إعداد الأستاذ(ة): يوسف عابد
Submitted by:

Submitted by: ---------- اعداد الأستاذ(ة): يوسف عابد

السنة الجامعية (Current Academic Year):

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية

التاريخ الإسلامي
السيرة النبوية

إعداد الدكتور
يوسف عابد

مقرر السنة الأولى ل.م.د.

الاضطراب الفكري العالمي:

عرف العالم الإنساني خلال القرن الخامس الميلادي اضطرابا في النفوس ،واستحقاقا للأهواء ،وتفرقا بين البشر ،وعجز العقل عن أن يحكم ما بلين الناس ،بل انه اتخذ العقل قضية لتبرير الباطل وتزييف الحق ،والعبث بالميراث الإنساني للنبيين من بعد إبراهيم وموسى وعيسى ،وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ،فالملكنيون تحكموا في اليعقوبيين حتى نفروا منهم .فاليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام .فصاروا لا وجود لهم إلا بمعونة قوي يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم.

ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود.ولا أن تصل إلى منشئه ولا يمكن معرفة الكون على حقيقته إلا بالإيمان بمن أنشأه وأن الأديان السماوية تدعوا إلى معرفة المنشء فما أنشأه ،ومعرفة الخالق من المخلوق .

تلك كانت حال العقيدة في الفلسفة الأيونية والفلسفة اليونانية ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء إلى الإنسان ،وأخذ يدرس نظام التعامل الإنساني ، ومقياس الفضيلة الذي يميزها عن الرذيلة ،ثم جاء أفلاطون تلميذ سقراط وقال أن الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة والفضائل كلها ترجع إلى الصلاح وجاء من يقول :أن الصلاح هو اللذة أو المنفعة فما هو نافع ولو نفعا شخصيا فهو خير ومالا نفع فيه فهو شر.

المجوسية :

لو غادرنا اليونان ومن سبقوهم إلى الفرس ومن وراءهم فأنا واجدون عجبا فإننا نجد بجوار الفلسفة اليونانية التي صارت اليهم فلسفة أخرى أرادت أن تنظم التعامل الإنساني ونحل مشكلة أصل الوجود بأوهام توهموها .فكانت الزرادشتية التي تفرض أن الوجود له إلهان ،اله الخير واله الشر وان كليهما يتنازع في النفس الإنسانية والكون وما فيه .

المانوية .

ثم كان بفارس أيضا مذهب يحسب أن الوجود الإنساني في كله شر يجب ألا يبقى بل يجب العمل على إفناء الإنسان ولذلك يمنع الزواج حتى لا يكون تناسل وينتهي ذلك الإنساني الذي اعتبر وجوده كفئة في الأرض ومادام الإنسان في الإنسان مستمرا فان اللعنة الإنسانية مستمرة،وكأنه يحسب انه نزل إلى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ،فالخطيئة باقية بوجوده.

المزدكية :

ثم بعد ذلك جاء مذهب آخر يحل الوحدة الإنسانية والعلاقة الفاضلة وهو مذهب مزدك الذي انتشر في فارس ،وأساسه إباحة النساء فلا زواج ولا ارتباط –بل يسافر الإنسان كما يسافر الحيوان من غير أي قيد من رابطة حافظة للأنساب ،كما أباح الأموال فلا ملكية تحمي إنسانا من إنسان بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أي نظام فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود في النساء ،وقد انتشر هذا المذهب في فارس ،وضاعت الأنساب واعتنقته بعض الأكاسرة –وساد وسار مدة الحكم هذا الكسرى.وزال ملكه قبيل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

البرهمة :

ولو أننا تجاوزنا فارس إلى ما وراءها من المشرق فانا واجدون الهند ، وما فيها ،وهناك ديانة تقوم على التفرقة الإنسانية بين الطبقات .

فالناس ليسوا سواء في الحقوق والواجبات ،بل يقرر دين البراهمة التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى براهما إلههم الأكبر فقد انقسم الناس من حيث قيمهم التي تتوارث –فقسموا إلى أربع طبقات .

–**الطبقة الأولى** :وهي طبقة البراهمة وهم رجال الدين ويزعمون أنهم خلقوا من رأس إلههم (براهما) ولذلك كانوا أعلى الناس وهم في زعمهم خلاصة الجنس البشري وعقله المفكر ورأسه المدبر.

–الطبقة الثانية :طبقة الجند

ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب إلههم براهما ويديه وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة وهي تليهم مباشرة.

الطبقة الثالثة :طبقة الزراع والتجار

وهم مخلوقون من ركبتي إلههم والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لها كبيرة وهي قريبة من الطبقة التي تليها مباشرة لتقاربها في التكوين والخلق .

الطبقة الرابعة :طبقة الخدم والرقيق

وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمي إلههم فهم أحط الطبقات وأبعدها ،لأنها البعيدة عن رأس (براهما)وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين والذين يتناولون الأعمال الحقيرة في المدن ويسمون من ليسوا من الهنود "ابليج" ومعناها أنجاس فكل من ليس هنديا نجس .والملاحظ أن هذه الطبقات تتوارث فلا يرتقي ابن طبقة إلى أعلى منها ولا ينحدر من هو في الأعلى إلى الأدنى .

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات ففضائل البرهمي أن يكون وافر العقل –ساكن القلب– صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطا لنفسه مقيما للعدل بادي النظافة.

ويجب أن يكون الجندي مهيبا شجاعا غير مبال بالشدائد ،حريصا على لقاء الخطوب وتيسيرها.

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها يرعى الزراع شؤون السوائم وتربيتها ،ويقوم التجار بشؤون التجارة ،ومعرفة الأسواق –ويجب أن يكون الخدم والأسارس والأنجاس مجتهدين في الخدمة والتحبب إلى الناس لان ذلك أليق بما ينبغي أن يكونوا عليه من آداب .يقول أبو الريحاني البيروني :

«وكل من هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير في إرادته إذا كان غير مقصر في عبادته غير ناس في جل أعماله وإذا انتقل عما عهد إليه إلى ما عمد إلى غيره كان آثما بالتعدي ...».

البوذية :

كان بوذا الذي ولد عام 560 ق.م يدعوا إلى كف النفس عن الشهوات ويرى أن تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها ،وقد وضع منهاجا للتربية النفسية يبدأ باجتناب الأهواء والاتجاه إلى نقل الأمور بقلب سليم ثم يكون الاعتقاد سليما .

ويقرر بوذا:مبادئ خلقية كالتي :

1-لا تقتل أحدا

2-لا تسرق ولا تغضب ولا تأخذ مالا لم يقدم إليك

3-لا تكذب

4-لا تشرب خمرا ولا تتناول مخذرا

5-لا تزن ولا تأتي بأي أمر متصل بالحياة الجنسية يكون محرما

6-لا تأكل طعاما مالم ينضج

7-لا ترقص ،ولا تحضر مرقصا ولا حفل غناء

8-لا تقتن فراشا وثيرا –ولا أرائك –وطفافس ولا وسائد

9-لا تأخذ ذهبا ولا فضة

إن هذه المبادئ البوذية فيها عيب وهي ناقصة

أما عيبها فإنها لا تعتمد على عقيدة موجهة بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشئ للوجود.ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد.

الكونفوسيوشية :

إن البوذية التي ولدت في الهند كان أكثر تابعيها في الصين لا في الهند وقد انتقلت إليها وثنية كما كانت في الهند .واقترن بها ما ليس منها ولكن لعدم اعتمادها على عقيدة قوية كانت نفي القلوب شاغرة .

وكان في الصين فيلسوف يسمى في لغة الفرنجة كونفوسيوش وهي تحريف لاسمه الأصلي في الصين وهو «كونغ فوتس»وقد أخذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذي وله نزع نحو مبدأ البوذيين المدنيين وكان م

ذهبه ليس دينا يتبعه ولكنه إصلاح يدعو إليه.

وكان كونفوسيوش الذي يرى أن مبادئ الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابي ،لا الاعتزال السلبي ،وغذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين حكم خلقي له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والأزمات ،فان الصين وصلت إلى حكم عملي حسن في جملته يتجه إلى الخير في غايته ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من إيمان خال من الأوهام.

وبجوار تلك كانت أوربا تعيش في ظلمات الوثنية وكان غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون في جاهلية عمياء كما تعيش بعض القبائل في مجاهل افريقية لا فرق بينهم إلا في اللون.

وكما جاءت المسيحية كانت قد شاهت واعتراها التغيير والتبديل وذلك لان الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت عن إصلاح الأخلاق وبث الاطمئنان في القلوب .والرضا في النفوس فكان لابد من دين يقود العقل إلى ما فيه خير للعباد.

-مزج الفلسفة بالدين :

بعدما أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان في التأثير في نفوس الشعوب ،وفقدت معابد الأوثان مكانها من روعة ،وكان شعورهم بالبؤس والآلام يجعلهم في حاجة إلى عزاء من الدجين والعامل الثاني هو أن الآلهة التي يمثلونها في الأوثان في زعمهم قد فقدت قوة تأثرها .

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ولكنها لم يكن لها تأثيرها فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون وليس التقاء تخاصم ،وهنا نجد الفلسفة اليونانية التي تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانتين اللتين كانتا بارزتين في ذلك الوقت ،وقد تخاذلت وثنية اليونان والرومان عن أن تقف وحدها في الميدان فأتى بآراء في خلق العالم وتقرر أن منشئ الكون الجدير بالعبادة في نظرها يشتمل على ثلاثة أمور هي :

1-أن الكون صدر عن منشأ أزلي دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده الأخطار .

2-أنم جميع الأرواح شعب لروح واحدة وتتصل بالمنشئ الأول بواسطة العقل الذي صدر عن المنشئ ،فهما متلاقيان في القدم ويصح التعبير عن المنشئ الأول بالأب وعن العقل بالابن وإن كان احدهما ليس متخلفا عن الآخر في الزمان.

ومن العقل انبثقت الروح التي وحدة الأرواح ،وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يكون التدابير والخلق .

ويلاحظ أمران :

أولهما أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين وصارا يضربان على نغمة واحدة هي نغمة ذلك التثليث ،وهو ما اشتملت عليه النصرانية التي حالت إليها المسيحية التي تزعمها من تركوا ما دعا إليه المسيح عليه السلام.

وبها تلتقي الفلسفة مع ذلك الدين ،وتلتقي الوثنية التي تتعدد فيها الآلهة وتكون منهما تلفيق متناسق أو غير متناسق ،ومن غير نظر إلى كون هذا الامتزاج مزيجا ،قد اختفت فيه ظواهر العناصر الممتزجة في ميزاج واحد،أم لم تختف.

الأمر الثاني :أن شيخ هذه المدرسة هو أمينوس المتوفي سنة 242 م اعتنق الديانة المسيحية الأولى التي جاء بها أتباع المسيح عليه السلام فيما نظن ،ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدميين.

وجاء من بعده أفلوطين المتوفي سنة 270منوقد تعلم في مدرسة الإسكندرية أولا –ثم رحل إلى فارس والهند وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ،وبراهمة الهند وديانتهم ،وعرف آراء البوذيين في بوذا ،وقد رفعوه إلى مرتبة الإله ،والبراهمة في كرشنة ،وقد رفعوه أيضا إلى مرتبة الإله نوقد عاد من بعد هذه الرحلة التي تزود منها بالزاد البرهمي والبوذي إلى الإسكندرية التي كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذي بيناه.

-في هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم في القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكري أمدا يعيدا ،حتى جاء القرن السادس ،وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ،وانحل الفكر انحلالا شديدا فيما يتعلق بالاعتقاد.

وانشقت النصرانية التي انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى بن مريم على نفسها ،فكان منها الملكنية وكان منها اليعقوبية ،واشتد الخلاف بينهم ،حتى انتقل الخلاف إلى عداوة فكرية ثم إلى عداوة تشبه العداوة الجنسية ،وأغرى الله تعالى بينهم بالعداوة والبغضاء ،وتفرقت النفوس والأفكار ،وضعف الاعتقاد ،وانحل الإيمان ،فانه كلما انتقلت العقائد إلى أن تكون موضع مجادلات

تضعف ،ويعرض لها الشك ،وينتهي اليقين ،وكذلك كان الأمر في الأرض التيس كانت تعتنق النصرانية في القرن السادس ،في البلاد التي كانت تجاور الجزيرة العربية وفي الجزيرة نفسها .

–فالمسيحية إبان القرن السادس الميلادي قد ضعف الإيمان بها لكثرة الجدل فيها ،ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ،واقتصرت على اتجاه معين من اتجاهاتها.

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ،وتجسس اليهود على النصارى ،واختفى المسيحيون في أكنان من أرض الروم وفلسطين مستشيرين بعقائدهم ،وكلما ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهاد و الأذى المرير ،وتبارى في ذلك ملوك الرومان ،وقد عمل أمرائهم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليئدوا ذلك الدين الجديد في مهده ،ويقبروه في حجر ولادته.

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلك الاضطهاد ، وقد جاء في كتاب التاريخ الحضارة ما نصه «قد كتب بلين وكان وليا في آسيا إلى الإمبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية ، وهو أني أسألهم إذا كانوا مسيحيين ،فاقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددا بالقتل ، فإن أصروا أنفذ فيهم عقوبة الإعدام مقتنعا بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقان بهما هذه العقوبة ،وقد وجهت التهم إلى الكثيرين بكتب لم تذيل بأسماء من كتبوها ،فأنكر المتهمون أنهم أنصارى ،وكرروا الصلاة على الأديان التي ذكرت أسماءها أمامهم وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأديان ، بل أنهم شتموا المسيح ،ويقال أنه من الصعب إكراه النصراني الحقيق على شتم المسيح ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى وكانوا يقرون بأنهم يجتمعون في بعض الأيام قبل طلوع الشمس على العبادة ،وعلى إنشاد الأناشيد إكراما للمسيح،وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم بل على ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا ووان يوفوا بعهدهم ،ورأيت من الضروري أن أعذب امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ،بيد أني لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة.

وقد كثر الاضطهاد ،وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير في موكبه ،إذ يطليهم بالقار ،ويشعل فيه النار ،وتصير تلك الشعلة في احتفاله بنفسه.

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ،وأنزل بهم العذاب وقتل في مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق ،حتى أنه اعتبر تاريخ ذلك العذاب هو ابتداء التاريخ القبطي.

–وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ،فكانت بقايا الوحدانية تظهر على لسان أريوس ،ومعه أكثر كنائس الشرق ،وأكثر الكنائس في فلسطين ،وكثير من كنائس مصر.

ولما أراد قسنطنطين أن يدخل في النصرانية جمع مجمع نيقية سنة 325مواعلن ثمانية عشر وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ،فأخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء في المجمع كانوا يبلغون 20474 أو يزيدون ،ولكنه أراد أن تتغير المسيحية إلى ما يقرب من الفلسفة والوثنية على ان يبقى اسم المسيحية ،وغن خلت من لبها ،وهي الوحدانية التي تحارب الوثنية.

ثم توالت بعد ذلك المجمع الذي مال بالمسيحية عن معناها مجامع أخرى ،وأول مجمع علم انعقد بعد ذلك كان المجتمع القسطنطيني الأول سنة 371 م وفيه أضيفت إلى مناصب الإلوهية روح القدس لتتم عناصر الأفلاطونية الحديثة التي أشرنا إليها آنفا .

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التي قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت في الذهان ،فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ،واعتقد أن المسيح ليس ابنا للآله بالحقيقة ،إنما البنوة مجازية ،إذ هو ابن بالنعمة والمحبة ،لا بالألوهية ،فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة 431م،ليبطل قوله ،ويكفروه كشأنهم في كل من يجهر برأي.

توالت من بعد ذلك الخلافات المفرقة ،فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الإنسان ثم فاضت عليه البنوة الإلهية التي هي اللاهوت ،فيقولون أن في المسيح صفتين اللاهوت والناسوت أو الإنسان والإله والابن هو مجموع الاثنين وهو الأقنوم ،وقد اشتد الخلاف في القرن الخامس والسادس .

وتقرر أمران :

أولا :إن القرن السادس كانت العقائد فيه غير قادرة في النفوس ،و الآراء تخلق وتعتنق ثم يتعصب لها وليس التعصب دليلا على قوة الاعتقاد .

ثانيا :إن النفوس في القرن السادس كانت مهيأة للعقيدة الصحيحة تعتنقها إذا ظهرت بنياتها وخصوصا أن الأفكار المرودة كانت أوهاما.

وهكذا نرى أن المسيحية التي خلفت المسيحية الحقيقية التي جاء بها المسيح عليه السلام ،جاءت قلقة غير مستقرة مضطربة .

فإذا كانت أوثان الرومان قد فقدت قوة تأثيرها ، وحل في ربوع الوثنية ديانة تأخذ من اليهودية طرفا وتأخذ من الوثنية بأطراف .وهكذا جاء الدين الجديد مضطربا واهنا حتى نهاية القرن السادس فكانت النفوس مهيأة لدين جديد هو الدين الحق .

-الجزيرة العربية :

لقد خرجت أصوات الأنبياء من أطراف الجزيرة ،وقد هاجر إبراهيم أبو الأنبياء إلى بلاد العرب وولد فيها ولده إسماعيل الذي كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومن بعده إسحاق وكان الأول من جاريته هاجر ،والثاني من زوجه سارة ،وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذي جاء به أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ،فكانوا في أصلهم موحدين لا يعبدون غير الله تعالى .

دخول الوثنية أرض العرب :

وردت عبادة الأوثان على العرب من ثلاث جهات :

1–من بقايا الديانات القديمة التي كانت فيها وثنية وإن لم تكن سائدة في البلاد فقوم نوح كانت فيهم وثنية وقد قص الله خبر أوثانهم فقال :

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا)[1]

2–من جيرانهم الرومان :فان الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض .

وخاصة أن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم كالعساسنة الذين كانوا تابعين للرومان .

3–**كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل :**

تذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه أن ابن هشام قال :«حدثني أهل العلم أن عمرو بن لحي[2] خرج من مكة إلى الشام .فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم :ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ،قالوا له هذه أصنام نعبدها فتمطرنا ونستنصر بها فتنصرنا ،فقال لهم ألا تعطون منها صنما فأسيروا به إلى ارض العرب فيعبدونه ،فأعطوه صنما يقال له هبل ،فقد به مكة ،ونصبه وأمر الناس بعبادته».

وجدير بالإشارة إلى أن وثنية العرب تختلف عن وثنية الرومان واليونان لما فيها من إيمان بالله.

ثم إن الجزيرة العربية تقعن بالنسبة لرقعتها الجغرافية –في نقطة الوسط بين هذه الأمم التي كانت تموج من حولها .وإذا تصورنا وضعية العرب في الجزيرة وحالة الأمم المختلفة المجاورة لهمك .أمطكن لنا فهم الحكمة الإلهية في مولد وبعثهن النبي محمد

صلع.

والحكمة من هذان الاختيار ،من نوع الحكمة التي اقتضت أن يكون الرسول أميا لا يتلوا كمن كتاب ولا يخطه بيمينه ،حتى لا يرتاب الناس في نبوته عليه الصلاة والسلام .وخاصة أن البيئة التي بعث فيها هي بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التي من حولها –أي لم يتطرق إليها شيء من الحضارات المجاورة لها ، ولم تتعقد مناهجها بالفلسفات المحيطة بها ،ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[3]

وهكذا :تكون معجزة النبوة والشريعة الإسلامية واضحة بين مختلف الدعوات .

وزيادة على ذلك فإن الله جعل البيت الحرام أول بيت وضع للناس للعبادة وكانت بقعته المباركة مهدا للدعوة الإسلامية وتتكامل مع الموقع الجغرافي الذي يتوسط الأمم المختلفة ،واقتضت حكمة الله أن تكون لغة الدعوة الإسلامية بلسان عربي مبين ،يعز وجودها في اللغات الأخرى.

1–سورة نوح ،آية 23.

2–عمرو بن لحي كان سيد خزاعة ،وكانت لخزاعة سدانة البيت الحرام

3– الجمعة ،الآية 2

علاقة الدعوة الإسلامية بالدعوات الإسلامية :

لقد اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأخرى –رسالة إدريس ونوح وهود وصالح ،وكان لإبراهيم الفضل في إنشاء البيت وكان شعيب قد بعث في مدين بها .وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها وكان شأن بني إسرائيل أن تكون شريعتهم شديدة قائمة في مجموعها على أساس العزائم لا الرخص .وكما بعث سيدنا عيسى عليه السلام خاطب بني إسرائيل«.... وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»4.

فقد أوضح لهم أنه مصدقا لما جاء في التوراة في مجال العقيدة ،لكنه مجددا ومغيرا بعض ما كانوا يعانونه من الشدة في الأحكام.

والخلاصة التي نود التأكيد عليها هي أنه لا توجد أديان سماوية متعددة .وإنما شرائع سماوية متعددة نسخ الحق منه السابق إلى أنم استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التي جاء بها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

أما الدين الحق فواحد بعث الأنبياء كلهم للدعوة إليه وأمر الناس بالدينونة له منذ آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلمكم ألا وهو الإسلام .

–إن البلاد العربية ليست بلاد متوحشة ،كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات وأهلها أذكياء يمتازون بقوة الشكيمة وقوة الخلق (جود ،وسماحة....) وبذلك يلتقي في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في موطن الدعاة إلى الحق ،قوة النفس ،صفاء النفس ،الأنفة لا يطيعون في ذلة...»وقد جاءت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فبدت هذه السجايا وكشفت طريق النور .

زمن الرسالة :

إن الزمان الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الإنسانية ويهديها ،فالديانة السماوية حرفت وانحرف تابعوها وضعفت مكانة الأوثان –آلهة اليونان–زالت الأوهام التي تحبطها.

–كانت التفرقة من حيث تحكم برجال السلطان في الرعية ،واختصاصهم بالمال ،يرى الناس النعمة في يد غيرهم يرتعون ويلعبون ويعيشون ولا حق لاحد في أن يعترض عليهم أو يلومهم.

والتفرقة من الناحية الثانية في أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها في الطبقة المحكومة ،والتسريف الروماني يعلوا على كل آحاد الرعية والرق في أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه.حتى أن يسوغ لأي إنسان يرى شخصا من أي شعب أن يسترقه والحكم للأقوى في العلاقات الإنسانية كلها .والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج وأمة لزوجها في بيت زوجها ولو قتلها لا عقوبة عليه.

وإذا تركنا غرب الجزيرة العربية وشمالها واتجهنا إلى شرقها وجنوبها فانا نجد أرض فارس .وما كان فيهان من انحلال سياسي وظلم وانحلال اجتماعي وزمن حول ذلك رؤساء ودهاقين يسوغون ذلك للناس .فالتجارب في المذاهب السابقة (من زرادشتية ،مانوية ،مزدكية...)لم تنجح في إصلاح الناس .

فالزرادشتية دعت إلى القوي ،فتحكم القوي في الضعيف والمانوية دعت إلى إنهاء ابن الإنسان من هذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله وجاء من بعده مزدك فنشر الفساد وانهار به المجتمع الفارسي .

4–آل عمران :50

من الميلاد إلى البعثة :

نسب النبي صلى الله عليه وسلم :

يذكر المؤرخون لسيرته –صلعم–أنه من ولد إسماعيل ابن إبراهيم وسلسلة نسبه هي :محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من هاشم بن عبد مناف(المغيرة) من قصي بن حرة بن كب بن لؤي بن غالب بن فهد بن مالك من النضر من كتانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس من مضر بن مزوار بن فهد بن عدنان .

هذا لتعريف بنسبه الكريم هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن بن عباس رضي الله تعالى عنهما.

–وإن الله عز وجل قد اختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب وأما ولادته صلع فقد كانت في عام الفيل.

حيث آل أمر اليمن إلى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ،وصار لها حاكما تاوة وبنى بها كنيسة فخمة بصنعاء سماها القليس وأراد أن يحج إليها العرب وخاصة النصارى منهم فلم يؤثروها على البيت الحرام ولم يستبدلوها به ،وبعد بنائها بعث إلى النجاشي بالحبشة وهو لا يزال يعتبر نفسه تابعا ،حيث جاء في هذا الكتاب .

«إني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ولست بمنته حتى أحرق إليك حج العرب ».

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد فأراد تحقيرها فأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية.

فلما رأى أبرهة احتقار العرب لها واستمرارهم على الذهاب إلى البيت الحرام ،لم يجد بدا لتنفيذ أرادته إلا أن يهدم البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عدة ،وخرج بالفيل الذي يستخدمونه في الحرب مع الإبل والخيل .

وعلم أهل مكة (قريش وكنانة وهذيل) أنه لا قبل لهم بمقاومته لما عنده من قوة والانتصارات المتتالية في طول طريقه إلى مكة زادته قوة وزادتهم خوفا فسكتوا حتى ينكشف المخبوء .

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب ،وكان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشدهم هيبة ،فأجله أبرهة وأكرمه .وقال عبد المطلب أنا رب الإبل ،وأن للبيت ربا سيمنعه.

–أرادوا بالفيل أن يسير متجها إلى البيت الحرام ،فوقف ولم يسير إليه فوجهوهم إلى اليمن فاتجه ،ووجهوه إلى الشام فاتجه ،ثم أرادوا أن يوجهوه إلى البيت فامتنع 5ولهذا كانت إرادة الله أن ينجوا البيت ببركة البيت ولما اعتزم أبرهة تنفيذ نيته ،لم يبق إلا أن يأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ،فأرسل الله تعالى طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ،وأتتهم رياح عاصفة ،وعاد أبرهة من حيث خرج ،وكانت واقعة الفيل هذه وآمنة الطاهرة كالبترول حاملة قد أو دعهما الله تعالى خير الخلق محمد – صلع–فكان مباركا على العرب وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه.

5–الاكتفاء، ج1،ص ص 132–133

ابن كثير كالبداية والنهاية ،ص134

محمد أبو زهرة :خاتم النبيين –القسم الأول –ص135

قالت آمنة :«لقد علقت به ،فما وجدت له مشقة حتى وضعته فلما فصل مني خرج معه نور ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه ».

فكان مولده كما يقول أكثر الرواة بعد خمسين يوما من مغادرة الفيل وأصحابه مدحورين وقد ولد محمد

وأبوه غائب حيث سافر في عير بقريش فأصابه 6المرض في بيت أبي النجار ،وعاد العير الذي كان معه وتركوه عند خوال أبيه وأصهار جده الكريم.

فإذا كان الأب قد ثكل انه الحبيب فتجلد ،فقد فقدت الأم الحبيب فكان منها الصبر المرير ولكنهم ذلك كان الصبر الجميل وهو الصبر الحبيس الخالي من الضجر والأنين.

ولادته بعد وفاة أبيه :

كانت ولادته على الأرجح يوم الاثنين لاثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول وكان أبوه عبد الله قد مات وأمه حامل به لشهرين فعني به جده عبد المطلب واسترضع له –على عادة العرب إذ ذاك –إمرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب.

«ظواهر سمو مكانته صلع»

كان وجوده على ظاهر الأرض أمرا خارقا للعادة في بركته على قومه برد أصحاب الفيل .وفي الحمل به إذ لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة .ينزل من بطن أمه مكملا ،كأنه يجوز السنة لم يتناوله حجر النساء فأمه الصادقة تقول :أنه وقع على الأرض معتمدا على يديه.

لم يكن اسمه معروفا عند العرب ،ولقد ذكر علماء السيرة أنه لم يسم به احد في الجاهلية إلا ثلاثة تسموا بهذا الاسم في عصر ولادة النبي صلى الله عليه وسلم .وهم محمد بن سليمان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر .والآخر محمد بن اصيحة الجلاح ،والآخر محمد بن حمران بن ربيعة .وكانوا هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك فاخبروهم بمبعث النبي صلعم .وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد سماه محمدا7.

إرهاصات النبوة :

6–السابق ،نفس الصفحة ،ص37

حيث بعث عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ،ودفن فحزن عليه عبد المطلب وإخوته حزنا شديدا .

7–الاكتفاء، ج1،ص168

وضعت آمنه الطاهرة حملها الطاهر ورافق ذلك سقوط الأصنام وتزايلت عن أماكنها وتمايلت على وجوهها ،-ظهور النور حتى أضاء قصور الشام 8،قال يهودي ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترة ،وذكر مخزوم بن هاني المخزومي أن إيوان كسرى ارتجس ليلة مولد النبي صلع وسقطت منه أربع عشرة غرفة ،وخمدت نيران فارس التي يعبدها المجوس ،ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة .

أرضاعه صلع:

أقبلت المراضع إلى مكة من بني سعد بن بكر ،وكان محمدا يتيما لم يترك أبوه شيئا وكانت المراضع راجيات من هذه الرضاعة الهدايا أو رضخا من المال لا أجرة يؤجرن بها اثدائهن .ولذلك اعرضن عن اليتيم الفقير .إلا حليمة بنت أبي ذؤيب أخذت اليتيم الطاهر محمد بن عبد المطلب راجية الخير وان لم ترج العطاء .وقالت :إني لأكره أن ارجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا ،والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه...

قالت :فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ثم بعد أن وصلت إلى منازل بني سعد قالت :لا أعلم أرضا من الأرض الله أجدب منها .فكانت والله غنمي تروح شباعا لبنا فنحلب ونشرب منها .حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب.

-أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين وهو في حضنها مع ولدها لا يفترقان لا تضن عليه بعطف ولا محبة ولا تخص ابنها بفضل منها بل هما على سواء .

فلما بلغ الحولين .حتى استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء حتى كان غلاما جفلا قويا ممتلئا يستغني بالطعام9.

وكان من حق المرضع أن ترده إلى أهله ،وكما قدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ،فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى.فإننا نخشى عليه وباء مكة فوالله مازلنا بها حتى قالت :نعم.

حادثة شق الصدر :

تعد حادثة شق الصدر بعدما عادت حليمة فرحة ببقاء الخير والبركة لان محمدا باقي في حضانتها من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل فقد رويت في ذلك أخبار بعضها في خبر قصير وبعضها في خير طويل ،أن رسول الله صلع أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فاخذ وصرعه ،فشق عن قلبه ،فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ،فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ،ثم لأمه ثم أعاده في مكانه ،وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ،فقتلوا أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتفع اللون10.

سفر أمه به إلى يثرب :

8_

9- سيرة بن هشام ،ص 146-149

10-مسلم/1/101 1025

كانت آمنة نموذجا للمرأة ،فقد رأت أن تزور يثرب وهو معها هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة وقد قصدت زيارة قبر أبيه وفي ذلك أجل الوفاء وأكرمه ،وأن تعرف ابنها بقرابته من ذوي الأرحام –بنو النجار–أقام محمد صلع مع أمه في أطم بني عدي بن النجار ،وهو قصر بني في أكمة عالية كأنه الحصن.

–موت الطهور آمنة :

أقامت آمنة بدار بني النجار ما طابت لها الإقامة ولم ترد الاستمرار بعيدة عن بني هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافله ،فكان لا بد من العودة ،لكنها وهي عائدة إلى مكة أدركها الموت بمكان اسمه الأبواء وهو بين مكة والمدينة 11،لقد ماتت الام الطاهرة وهو يدرك الحياة وقد ضاق حلاوة جنانها ولطف عطفها هو حرمان من شيء موجود شعر به .

ذاق حب الأم وذاق لوعة فراقها ،وكان كلما قر بقبر أمه غلبت عبراته ،وجدير بالقول أن أبو محمد صلع كانا قريبين إلى الهدى و الأخلاق الكريمة التي جاء به شرع ابنها من بعد.

وحضنه عبد المطلب :

عادت أم أيمن الحبشية إلى مكة وسلمت الغلام الطاهر إلى جده عبد المطلب وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العارم بالخير .وفي البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب .لقد كان فيه حمزة وكان فيه العباس...

لقد كان وسطا مملوءا بالعطف والصلاح فما قهره يتمه ولا أرهقه فقد أبويه.

لقد كان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ،والتقت فيه محبتان من عبد المطلب .جاء في السيرة لابن إسحاق :

«كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ،وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ،فكان رسول الله صلع يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه ،فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم :«دعوا ابني فوالله أن له لشأنا .ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع»12.

وكان في ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ،ورأت فيه وجودها ،تحنوا عليه كأمه ،وهي التي حضنته كأمه وآوت به من غربته وهي أم أيمن وكان عبد المطلب يعتمد عليها إذا غاب عنه في رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية في العناية به .فيقول لها :«يا بركة لا تغفلين عن ابني فاني في غلمان قريب من السدرة ،وأن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة »13.

في حضن أبي طالب :

11–الروض الانف.ص149

12–محمد أبو زهرة :خاتم النبيين ،ج1،ص163

13–السابق.نفس الجزء ،2،ص164

كان اليتيم يعيش في عزة وعطف في أحضان أمه الطاهرة ،وحاضنته البرة أم أيمن بركة هذا البيت ،وكنف الشريف في قومه السيد في قبيلته لم يحس بالمهانة أو القهر ،إلا أن بلغ الثمانية من العمر .

لقد مات جده وتركه في الثامنة من عمره.

لقد قام أبو طالب بحق الوصية فكان يرعاه حق الرعاية ،فكان يصاحبه في غدوه ورواحهن ما أمكنت الصحبة ،فقد كان لا ينام إلا بجواره في منامه وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ،وكان مثله كمثل حليمة وأولادهم إذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ،ودرت عليهم أخلاق ناقتهم بعد أن جفت.

وأنه يكفي أن يكون معهم في الطعام لتكون البركة ،ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذي اختصه به أبو طالب.

رحلته إلى التجارة :

كما أتم له صلع من العمر اثنا عشر سنة،سافر عنه أبو طالب إلى الشام في ركب فأخذه معه ،وكانت هذه الرحلة مشتملة على إرهاص كبير معلم بنبوة النبي صلع ،وقد كان ببصرى راهب في صومعته اسمه بحيرا وكان على علم بالكتاب ،وكان نزلاء هذه الصومعة على علم بالتوراة و الإنجيل –بنو أرثون ذلك العلم كابرا عن كابر »

–رأى غمامة تظلهم ...وأراد أن يعرف أحوال الصبي المراو لهم،فاتجه إلى إكرامهم....

قالوا يا بحيرا ما تخلف أجد ينبغي له أن يأتي ،إلا غلام وهو أحدثنا سنا فتخلف في رحالنا ،قال لا تفعلوا ادعوه ،فليخضر هذا الطعام .....فحضر.....فلما فرغ اقبل على عمه أبي طالب .فقال ما هذا الغلام منك ،قال ابني !!

قال بحيرا :ما هو ابنك ،وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ،فقال أبو طالب :فإنه ابن أخي ،قال:فما فعل أبوه نقال :مات وأمه حبلى به ،قال :صدقت ،قال :ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر من اليهود ،فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة ،وأنجز تجارته14.

عاد محمد مع عمه من تلك الرحلة بعد ان رغب رغبة شديدة في أن يسافر إلى قافلة التجارة ،فقد كان صبيا جادا ،ولم يكن ممن يميلون إلى المتع وانه كان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ،إذا كان كافله الذي كفله وهو أبو طالب فقيرا .

لقد اتجه محمد إلى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعي قد ثبت في المصادر التاريخية أنه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بني أبي السائب ،وإذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التي ينقلون فيها بضائع الروم إلى الفرس ،والعكس ،فمكة كان فيها الاتجار في داخل البلاد العربية في موسم الحج ،ومنها بضائع الروم والفرس في البلاد العربية ،فكانت فيها الأسواق رائجة .

ومنذ أن استقبل فترة الشباب من عمره بدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل يرعى الغنم وقد قال صلع «كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة »15.

ورعاه الله وحفظه من كل ما من شأن ه أن يجذب الشباب من مظاهر اللهو والعبث وقال عليه الصلاة والسلام :

14–ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج2

ابن هشام ،السيرة ،ص304

15–رواه البخاري

«ساهمت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين ثم ساهمت به حتى أكرمني الله بالرسالة :قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة لو أبصرت لي غنمي حتى ادخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال :أفعل ،فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت :ما هذا ؟فجلست اسمع فضرب الله على أذني ،فنمت فما أيقضني إلا حر الشمس فعدت وسألني فأخبرته ،ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل تلك الليلة ثم ما هممت بعده بسوء»[16]

-زواجه صلى الله عليه وسلم :

لم يتزوج محمد صلع مبكرا بل انتظر حتى بلغ الخامسة والعشرين سنة ،ومع ذلك لم يقع منه في طفولتهن ما يشين الكرام وقد صمه الله تعالى يوم هم وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما .

وما كان محمد صلع في أي دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ،وشهوات النفس ،لا عن ضعف في النفس ولكن عن قوة فيها ،وهمة عالية تتجه إلى معالي الأمور وعزيمة صادقة .

لقد اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه بالأمانة والخلق الكريم ،وكان لخديجة مال كثير حتى أن عيرها كان يعادل عير قريش كلها في حجمه ،ونفاسه ما اشتمل عليه من بضائع التجار ،كانت خديجة لا تذهب بتجارتها إلى الشام بل كانت تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها في التجارة على اجر معلوم تعطيهم إياه نعلى مقدار ما يبذلون من جهد في الرحلة ،يبيعون ويشترون باسمها ولا شأن لهمن في كسب التجارة أو تكون المعاملة على أساس المضاربة الشرعية وذلك بان يتجروا في المال بعقد بينها وبينهم على أن يكون الربح مقسوما بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس ،أو نحو ذلك وملكيتها قائمة وإذا خسرت التجارة يكون الخسارة عليها وحدها ،لان باق على ملكيتها ،ويسمى هذا العقد المضاربة أو القراض.

والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ،لم ترض على غيره بديلا ،فأشار أبو طالب على محمد القوي الأمين بأن يعرض نفسه مسارعا إلى ذلك ،ولكن محمدا يرى نفي العرض ذلة لا يرضاها الكريم.

فقال محمد صلع: لعلها ترسل إلي في ذلك ،فيقول أبو طالب :أخاف أن تولي غيرك ،وقد قيل أنها بلغتها هذه المحاورة بين العم وابن الأخ ،فطلبته وقالت :«دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك ،وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ،وأنا عطيتك ضعف ما أعطي رجال قومك.

ولقد سارع محمد صلى الله عليه وسلم إلى عمه الحبيب بخبره بما جرى لأنه طلبته فسر عمه وقال له :«إن هذا رزق ساقه الله تعالى إليك»[17].

خرجت العير بعد قيام الأسواق التي تقام في مكة أيام الحج عكاظ وذي المجاز ،ومجنة وهي يومىء إلى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق وكانت البضائع تابع في مكة ،لتنتقل من بعد إلى الشام أو إلى اليمن .

لما وصلت العير إلى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد فآوى إلى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورة وهو غيرا الراهب بحيرا ،والتقى الراهب نسطورة بميسرة غلام خديجة والذي كان في معونة محمد صلى الله عليه وسلم

16-رواه الأثير ،ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر

17-العسقلاني،المواهب الدينية ،ج1،ص198

وخديجة.قال الراهب :ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي ،وكأن هذه الشجرة منذ القديم هي منزل الأنبياء ينزلون في ظلها وغيرهم ينصرفون.

وكانت محصلة الرحلة التجارية أن باع محمدا كل البضائع التي اشتراها في مكة فكان الثمن ضعف رأس المال فكأن الكسب كان مثل رأس المال ،وكان ميسرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما راى من طيب نفسه ومن لطف عشرته ومن حسن معاملته وسماحته.

كل هذا أوجد فيها طموحا لان تكون زوجا له ،وأن تكون أما لاطهر الأولاد من أطهر الرجال .

أدركت خديجة بفطنتها وغريزتها أنه لا بد من أن ينبه،فتولت هي ذلك الأمر للنساء فيه قدوة وإن كانت من مثل خديجة فيه مواجهة واحتشام من غير إسفافا.

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبه محمد عليه السلام ولتجسس نبضه وقد فعلت :قالت فأرسلتني دسيسا إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع ي عيرها من الشام ....فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟قال :فمن هي ؟قالت :خديجة :قال وكيف لي بذلك ؟.....بعد مقابلتها أعلن القبول ،وبعد ذلك قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم "إذهب إلى عمك فقل له :عجل إلينا بالغداة ،وجاء إليها أبو طالب فقالت له :يا أبا طالب إذهب إلى عمي فقل له يزوجني من إبن أخيك،فوافق أبو طالب على أصل الزواج .

تمت الخطبة وتراضت الأسرة وكان يوم الزواج وكان الصداق اثنتي عشر أوقية من ذهب ونصف أوقية .

وأجمع العلماء على أن سنه عليه السلام في وقت الزواج كانت خمسة وعشرين سنة وكانت هي في الأربعين من عمرها .

وإذا كانت امرأة نوح وإمراة لوط قد تخاذلتا في معاونة النبيين الصالحين فامرأة محمدا عليه السلام أعلنت شان النساء قاطبة ،فكانت الملهمة والمواسية الودود العطوف الولود.

«ووجدك عائلا فأغنى»

لقد اتخذ محمدا صلع المال وسيلة للمكرمات يقون بها وللخير يسديه فكان يطعم الكل ،ويعين على نوائب الدهر،ولا يجد ذا حاجة إلى العون إلا أعانه ولا ذا خصاصة إلى سدها ،ولا ذا مسغبة إلا أشبعه.

تلفت فيمن حوله فرأى كافله وحبيبه أبو طالب في ضيق وعيلة فجاء إلى عمه العباس وكان ذا ثراء ،وقال له هلا أخذ بعض ولد أبي طالب ليتخفف عن ضيق فعرضا عليه الأمر فقال :أتركا لي عقيلا وخذا ما شئتما فأخذ محمد صلع علي وأخذ العباس جعفرا ،فكان علي وولده الذي تربى في عهد النبوة.

كان محمدا شاكرا يفيض بالخير على غيره.

إعادة بناء الكعبة :

لقد أصاب وهن بناء الكعبة ،وكان ذلك بعد عشر سنين من زواج محمد بن عبد الله من خديجة وكان النبي قد بلغ خمسا وثلاثين سنة.

وكان التجديد على ما بناه إبراهيم عليه السلام ،وأن قريش أخذت لهذا البناء أهبتهن وأن إبراهيم هو أول من بني البيت ،ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق ما يشير إلى أن قد بنيت من قبل إبراهيم عليه السلام ،وقد جرت فيه إصلاحات كثيرة بعد ذلك ،فما كان بناء إبراهيم عليه السلام ليستمر قائما غير قابل للهدم أكثر من ألفي سنة .

ثم بناء البيت الحرام ،ولم يختلفوا في شيء عند إقامته لان كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ولكن أقر ألا يقبل القسمة اختلفوا فيه وهو الحجر الأسود ،اختلفوا فيمن يضعه في موضعه من هذه البنية ،ووقف أسن قريش يدعوهم إلى السلام وإنهاء الخصام فقال :«يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم ،فارتضوا ذلك ،وعلموا أنه وفي الله تعالى عندما ظهر أول داخل فإذا هو محمد صلع،فقال كبيرهم :هذا الأمين رضينا به حكما.

لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ،ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ،ثم بنى عليه »[18].

هذه حكمة بالغة أحل بها الخلاف وانتهى إلى وفاق ،وقامت الكعبة واستمرت على ذلك في عهد

النبي صلع ،وبعدها هدمت خلال عهد عبد الله بن مروان أثناء حصار عبد الله بن الزبير ،فاتجه ابن الزبير إلى إقامتها على قواعد إبراهيم ،فأعاد طولها وادخل من الحجر الأذرع التي كانت قد نقصت منه لضيق المال الحلال الذي كان بيد قريش .

لم يستمر الأمر لابن الزبير بل قتل واستمكن الأمر للحجاج بم يوسف الثقفي ،فشاور عبد الملك بن مروان في الأمر الذي غيره عيد الله بن الزبير في بناء الكعبة فكتب إليه عبر الملك:

أما منا زاده طولا فاقره وأما ما زاده في الحجر فرده إلى بناءه وتسد بابه الذي فتحه ففعل ذلك الحجاج.

18-سيرة بن هشام،ص301

6. إرهاصات النبوة:

أخذت خلوات محمد صلى الله عليه و سلم و انعزاله عن مجرى الحياة المكية الصاخبة تزداد و تتسع وهو يقترب من الأربعين ، حيث أعده الله سبحانه لأول لقاء مع وحيه الأمين من أجل تكليفه مسؤولية النبوة ، وإخراج الناس . بها . من ظلمات الجاهلية ودنسها إلى نور الإسلام و نقائه . فكان يغادر مكة بين الحين و الحين ، مجتازا أسوارها الجبلية ، منقلا خطواته الثابتة الواسعة غبر رمال الصحراء المترامية التي تحجب عنه البيوت و الأسواق ويغيبه الأفق وتستقبله شعاب مكة وبطون أوديتها ثم يلج بعيدا إلى جبل النور حيث ينتهي به المطاف هناك إلى غار هناك يدعى (غار حراء) ، فيمكث فيه الأيام و الأسابيع الطوال لا يعود إلى مكة إلا ريثما يتزود بالطعام و الماء ثم يقفل عائدا إلى المكان الذي سيبعث فيه إلى العالم كله . وتذكر الروايات أنه كان يجاور في حراء من كل سنة شهرا فإذا قضى شهره ذاك انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعا ثم عاد إلى بيته . [19]

أما عن إرهاصات نبوته قبل بعثته صلى الله عليه و سلم فكان أولها الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . [20]ومنها تسليم الحجر عليه قبل بعثته ، [21]وتصف عائشة رضي الله عنها ذلك : " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه

---

19) . الطبري . تاريخ . 300/2، ا

20) . صحيح مسلم . حديث 160، ج1/ ص139.

21) . المصدر نفسه . حديث 2277، ج4/ص1782.

الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع (يرجع) إلى أهله و يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق و هو في غار حراء " . (22)

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من معنى الخلوة و الانعزال و التحنث الذي كان يمارسه رسول الله صلى الله عليه و سلم على أنه إنصراف كلي عن الناس ، وانسحاب من الحياة ، و اتخاذ الكهوف و الجبال موطنا و اعتبار ذلك فضيلة بحدّ ذاتها . فذلك مخالف لهديه صلى الله عليه و سلم و لما كان عليه عامة أصحابه . إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواء لإصلاح الحال ، و الدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم ، وإلا انقلب إلى داء ينبغي التوقي منه . وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة و الابتعاد عن الناس ، فمرد ذلك إلى حالة خاصة به ، وليس عمله حجة على الناس . (23)

7 . نزول الوحي ومطلع النور :

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها كيفية بدء الوحي و تقول :

" أول ما بديء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنَّث فيه . وهو التعبد . الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: (ما أنا بقارئ)، قال: (فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}[العلق:1: 3])، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: (زَمِّلُونى زملونى)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: (ما لي؟) فأخبرها الخبر، (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي . فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعا، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجيّ هم؟) قال:نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفَتَر الوحي." (24)

و اشتد ذلك على رسول الله فكان يجوب شعاب مكة و يصعد جبالها علّه يقابل الملك الذي جاءه بالغار، ولم يلبث أن نزل الوحي عليه مرة أخرى ، يقول رسول الله : " بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري ، فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء و الأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى .

---

22) . صحيح البخاري . ج1/ص3.

23) . محمد سعيد رمضان البوطي . فقه السيرة النبوية . ط10، دمشق : دار الفكر ، 1991م ص94-95.

24) . صحيح البخاري . 30/1، 31، باب بدء الوحي ، صحيح مسلم . 197/2-204.

فنزلت: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" [المدثر: 1: 5]) وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمى الوحى بعد وتتابع. (25)

وكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذانا للرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بمنامه و هدوئه و سلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة و التشمير ، والإنذار و الإعذار ، فليحمل الرسالة ، وليوجه الناس ، وليأنس بالوحي ، وليقوَ على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية في عصرها المكي

1 . الدعوة السرية (الفردية):

يذهب كثير من كتاب السيرة إلى اعتبار السنوات الثلاث الأولى التي أعقبت نزول الوحي عليه صلى الله عليه و سلم فترة سرية بدأت الدعوة حياتها بها ، و على هذا فقد بدأ صلى الله عليه و سلم دعوته سرا .

ولا نجد تفصيلا لما حدث في هذه السنوات الثلاث في المصادر فهي لم تتوقف طويلا عند ذكر هذه المدة ، بل لم تفرد لها عنوانا مستقلا ، أو فصلا خاصا ، وإنما ورد الحديث عنها مجملا ضمن الحديث عن الدعوة . (26)

فابن هشام . على سبيل المثال . يقول نقلا عن ابن إسحاق : ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه و سلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه و سلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين . فيما بلغني . من مبعثه ..". (27).

و انطلق رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أقرب الناس إليه و ألصقهم به يدعوهم إلى الله بسرية تامة يكوِّن القاعدة العريضة المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة ، ويرسي في صدور هذه القاعدة الإيمان بالله وتوحيده المطلق ، ونبذ ما سواه من الأنداد و الشركاء و الشفعاء و الوسطاء ، وتذكير الناس بيوم لا ريب فيه يوم يرجعون فيه إلى الله ، ويزكي نفوسهم بعبادات فرضت عليهم ، ويجمعهم في كيان الجماعة المسلمة التي ترتبط برباط العقيدة ، ويحدد أهدافها القريبة و البعيدة ، ويجعل منهم شهبا تلمع في إهاب الليل الحالك تنير الدرب و تسطع في الأفق .

---

25) . المصدر نفسه . باب بدء الوحي . ج1/ح3، ص4.

26) . السيرة النبوية . تربية أمة وبناء دولة . ط1، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1992م ، ص17

27) ـــ ابن هشام . السيرة النبوية . 262/1. وقد أغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالا تاما ، من هذه المصادر :(مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم) لعروة بن الزبير . جمع و تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، وقريبا منه فعل ابن حزم في كتابه . (جوامع السير) .

و هذا المنهج في السرية و التكتم الذي اتخذه رسول الله صلى الله عليه و سل ليس سببه الخوف على نفسه ، فالله عاصمه من الناس حتى يبلغ دينه للعالمين كاملا غير منقوص .. ولكنها الحكمة في حفظ الدعوة و المدعوين في المهد ، لتعلن الدعوة يوم تعلن وعشرات الأصوات تهتف بها و تؤيدها ، وتحمي صاحبها ، وتتحمل من أجله الأخطار ، وتبذل في سبيلها كل غال و نفيس .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدرك طبيعه مجتمعه، و القوي المتسلطه عليه، و يعلم أن هذا الزلزال التاريخي الهائل سيهز طواغيت المشركين ، و يثير كبرياءهم و عدوانهم. فليس بوسعه ان يجاهر بتلك الدعوه و يدعو الي تحطيم الوثنيه و الخرافه، ، و انقاذ المستضعفين و المحرومين بصورة علنيه. اذ كان سيواجه بكل وسائل الرفض و المقاومه و العدوان، فله فيمن سبقه من النبيين و المرسلين لعبره و موعظه، فقد جوبهت دعواتهم بالصدود ، و جندت قوي الطغيان كل امكاناتها لمحاربه رسالات الانبياء و دعوات الاصلاح التي تواجهها، فقتلوا النبيين و دعاه التوحيد، و عذبوهم و اخرجوهم من ديارهم، و سخروا منهم، و شنوا الحرب الدعائيه ضدهم.

وفي هذا تعليم للدعاة من بعده ، وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة و الأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير و العقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها . على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد و الاتكال على الله وحدة ، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير و الفعالية في تصوره و تفكيره . فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام .

والدعوة السرية الفردية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في أول الأمر وإن كانت مهمة لمرحلة الابتداء أو شرطا في النجاح والاستمرار لكنها لا تصلح أن تكون منهجا عاما إلى آخر المدى؛ إذ لا يمكن لدعوة عالمية يرجى لها الذيوع والانتشار في مشارق الأرض ومغاربها أن تعتمد هذا الأسلوب فقط إلى النهاية فإن في هذا إضعاف شديد للدعوة بل وأد لها، لذلك فما أن استجاب لهذه الدعوة نفر من الصحابة الأجلاء وخرجت الدعوة عن حيز الانحصار في شخص واحد بحيث يؤمن من وأدها والقضاء عليها، وما أن وجد الرسول صلى الله عليه وسلم أعوانا على الدعوة حتى بادر إلى الأسلوب الآخر أسلوب الإعلان والبوح وإظهار الدعوة والجهر بها بين الناس ؛ إذ هذا الأسلوب هو الكفيل بنشر الدعوة وبلوغها للناس على نطاق واسع في زمن قليل جدا إذا قورن بزمن الأسلوب الأول، لكن ما أن جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة حتى عاداه المشركون وصدوا الناس عن دعوته ولم يكن هذا في الحقيقة نتيجة لأمر عارض كطريقة عرض الدعوة مثلا ولكن كانت هذا المعارضة نتيجة تناقض حقيقي بين دعوة الإسلام ودعوة الشرك فالإسلام قائم على عبادة الله وحده والعدل بين الناس، وأما الشرك فهو قائم على عبادة غير الله والعلو في الأرض بغير الحق، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما اطمأن على الدعوة ظل سائرا في طريقه لم يثنه عن ذلك ما ظهر من معارضة المشركين لأن هذا المعارضة من طبيعة التناقض التام بين دعوة الحق ودعوة الباطل، وعلى الدعاة إلى الله تعالى على بصيرة أن يستفيدوا من هذه السياسة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالى ، فعليهم أن يراعوا الظروف والأحوال في الدعوة مع الحذر من أمرين: أحدهما : التفريط في مضمون الدعوة أو عرضها ناقصة أو مبتورة أو خلطها بأمور مخالفة بزعم ترويجها أو التخلص من بعض القيود، وثانيهما: تعرض الدعوة للوأد أو القضاء عليها نتيجة للمغالبات التي تفوق طاقتهم، ومن البين أن الأسلوب أو الطريقة التي تتبع في ذلك قد

تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر اعتمادا على أوضاع بيئة الدعوة وظروفها وإمكانات الدعاة وقوتهم ولا شك أن هناك أساليب كثيرة يمكن أن تتحقق بها الدعوة مع تفادي المحذورين المذكورين، ومن هذه الأساليب الأسلوب الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من باب السياسة الشرعية بوصف كونه إماما ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيا [28].

فكانت أول من دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم زوجته خديجة رضي الله عتها ، التي آمنت به ، وصدقته ، وهونت عليه ، وأعظمت له عمله ، ونفخت في طوايا نفسه الأمل في النصر ، وشجعته على المضي في تبليغ دعوته ، وما خرج من عندها إلا وهو أقوى عزيمة وأقوى شكيمة .فكانت سباقة إلى هذا الدين وأول من أمن في الأرض بمحمد عليه الصلاة و السلام .

كما آمن به ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان صبيا يحيا في كفالة رسول الله صلى الله عليه و سلم . وكان عمره بين التسع و العشر سني، وكان أول من أسلم من الذكور من أسرته عليه الصلاة و السلام، وكان إذا حضرت الصلاة خرج به النبي صلى الله عليه وسلم إلى شعاب مكة مختفيين فيصليان ويعودان كذلك، وقد اطلع عليهما أبو طالب وهما يصليان مرة، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخى، ما هذا الدين الذي أراك تدين به. قال: أىْ عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم؛ بعثنى الله به رسولا إلى العباد، وأنت ياعم أحق من بذلت له النصيحة ودَعَوْته إلى الهدى، وأحق من أجابني وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا ابن أخي، إنى لا أستطيع أن افارق دين آبائي. ولكنه مع ذلك أقر ولده عليًّا على اتباع هذا الدين ووعد النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينصره ويدفع عنه السوء.

وقد أسلم بعد ذلك زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، الذي تبناه بعد أن أعتقه وزوجه أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت من السابقين إلى الإسلام.

ثم أسلم صديقه الحميم أبو بكر الصديق وكان أول من أسلم من الرجال الأحرار و الأشراف ، وهو من أخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل البعثة ،وفيه قال الرسول صلى الله عليه و سلم : " ما دعوت أحدا إلى الإسلام ، إلا كانت عنده كبوة ، وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عكم[29] حين دعوته ، ولا تردد فيه " [30].

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلًا مألفًا محببًا سهلًا ذا خلق ومعروف،وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموى، والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام. [31]

---

28) . البوطي . فقه السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص107، محمد بن شاكر الشريف. سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله . موقع saaid.net.

29) . ما تلبث أن سارع

30) . أبو شهبة . السيرة النبوية . 284/1.

31) . ابن هشام . السيرة النبوية . 254/1.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومى، وعثمان بن مظعون الجُمَحِيّ وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوى، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمى، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى، وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامرأته فاطمة بنت المُجَلِّل وأخوه الخطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر ابن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشي، صُهَيْب بن سِنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فُهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن: أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة:إنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك– وجانب الصواب بعض كُتَّاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، عندما وصفوهم بأن معظمهم كان خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟.

وبقولهم: كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها، أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي.

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب[32]، رضي الله عنهم.

ويقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية – لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة – ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية، يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون، إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنهم يدخلون في هذا الدين

32) . صالح الشامي . من معين السيرة . ط2، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1992م ، ص40.

على اعتبارهم إخوة في ظل هذه العقيدة، عبادا لله، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها[33].

أسلمت تلك الثلة من السابقين الأولين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، يطلعهم على كل جديد من الوحي ويتلوا عليهم آيات الله عز وجل غضة طرية فتسكب في قلوبهم ، وتتسرب إلى أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدم وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائب الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

ويبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة - في هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية لكن بلغت أنباءها إلى قريش، بيد أنها لم تكترث بها .قال الشيخ محمد الغزالي" :وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين، الذي يتكلمون في الألوهية وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته."[34]

وظلت الدعوة في طورها السري ثلاث سنين حتى نزل القرآن يأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بإعلان الدعوة إلى الإسلام و الجهر بها ، ومواجهة الباطل بحقائقها ، ومجابهة الوثنية في عقر دارها .

2 . الدعوة العلنية (الجهر بالدعوة):

ما لبث رسول الله صلى الله عليه و سلم أن بدأ بإعلان دعوته بعد أن تنزل قوله تعالى : " وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" ،(الشعراء: 214، 215). وقوله : " فا صدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " ، وذلك بعد استكمال بناء الجماعة المسلمة على أسس العقيدة والعبادة و الأخلاق .

وقد بدأ الرسول صلى الله عليه و سلم الدور الجديد للدعوة بأن صعد على جبل الصفا فنادى : ياصباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسيِّكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا تبًّا لك ، فأنزل الله عز وجل: (تبت يدا أبي لهبٍ وتب.ما أغنى عنه ماله وما كسبَ.سيصلى ناراً ذات لهب) [المسد :1-3] إلى آخرها.[35]

(وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية

---

33) . المرجع نفسه .

34) . فقه السيرة . مرجع سابق . ص96.

35) - صحيح البخاري .كتاب التفسير. رقم **4971** ، (الفتح **737/8**)

(وأنذر عشيرتك الأقربين) (سورة الشعراء ، آية (214))دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشًا فاجتمعوا فَعَمَّ وخص فقال: "يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها بِبَلالها".(36)

فهاتان الروايتان مع روايات أخرى تبين لنا الموقف الصعب الذي كان يواجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه ، وقد أمره الله تعالى بدعوة عشيرته الأقربين ، وإن في الأمر بالبدء بدعوة الأقربين حكَمًا عظيمة ، منها أن بقاء الظلام المحيط بالنور من قرب يحول دون رؤية ذلك النور بوضوح فكان تبديده عاملاً مهمًا في انتشار ذلك النور ، فالبدء بدعوة الأقربين لأنهم محل حكم الناس على الداعية فإذا لم ينجح مع أقاربه كان لذلك أثر في الصد عن دعوته ، هذا إضافة إلى أن الدعوة برٌّ وإحسان وأحق الناس ببر الإنسان أقاربه .

ولقد قَدَّم النبي صلى الله عليه وسلم بمقدمة تلزمهم بالإذعان لو كانوا متجردين من الهوى والتقليد ، وذلك أنه صور نفسه نذيرًا لقومه ينذرهم من جيش قد اقترب منهم " أرأيتم لو حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم" فهذا يعني أنهم على استعداد لقبول إنذاره فيما يتعلق بدنياهم ، فلما اطمأن إلى ذلك ذكر لهم ماجمعهم من أجله ، وهو إنذارهم مما هو أجل خطرًا وأعظم عاقبة فقال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" يعني فكما صدقتموني في وقايتكم من مكروه الدنيا فصدقوني في وقايتكم من مكروه الآخرة الذي هو أشد وأبقى .

وفي هذا دلالة على أن من أساليب الدعوة التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشهاد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به على الأمر الجديد الذي يريد الداعية أن يدعو الناس إليه .

فأهل مكة المكرمة آنذاك كانوا يصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله من أخبار الدنيا، ولذلك لقبوه بالأمين فاعتمد هذه القناعة الثابتة عندهم لدعوتهم إلى الإيمان بالآخرة .

كما أن في هذا دلالة على أنه مما يجب أن يتزود به الداعية الرصيد الأخلاقي الكبير الذي يجبر خصومه على الاعتراف بفضله في هذا المجال ليتوصل بذلك إلى نشر دعوته السامية .

ولكنّ أفراد عشيرته صلى الله عليه وسلم هؤلاء صمتوا فلم يجيبوا ولم يستجيبوا لدعوته ، بل إن عمه أبا لهب لم يكتف بذلك ، وإنما ردّ عليه بهذا الرد القاسي السيئ .

ومع هذه المعاملة القاسية فإن النبي صلى الله عليه وسلم ظل صامدًا في دعوته غير عابئ بتحدي قومه ولابصدودهم .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "فإني لا أملك لكم من الله شيئًا " دلالة واضحة على أنه لاينجي الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لاينقذ من النار حتى أقرب أقاربه، فإن ذلك لايكون لغيره من البشر مهما بلغوا من الولاية والصلاح .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها" يعني إذا كنت لا أستطيع إنقاذكم من النار إلا بدخولكم في الإسلام فإن ذلك لايمنعني من أن أصلكم في الدنيا لقرابتكم مني .

---

36) . صحيح مسلم . كتاب الإيمان. رقم 204 ، ص 192 .

وهذا الاستثناء له أثره الكبير في إبقاء حبل الوصل مع عشيرته ، لأنهم – وهم كفار – لايهتمون إلاَّ بالحياة الدنيا ، وقد أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لن يتغير شيء في حياته عما كان عليه من صلة رحمه ، فلعل بقاء هذا الخيط الذي يعرفونه ويقدرونه يكون سببًا في إيمانهم بما أنكروه من دعوته ولم يقدروه حق قدره .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبقى على صلته مع أقاربه وهم كفار ، فمن باب أولى لعموم المسلمين وخاصة للدعاة أن يبقوا على صلتهم بأقاربهم المسلمين وإن أنكروا منهم بعض السلوك أو جابهوهم بشيء من النفور والتحدي ، من أجل أن تكون هذه الصلة سببًا بعد ذلك في عودتهم إلى الالتزام بالدين واحترام دعاته المخلصين .[37]

قرر المشركون أن لا يألوا جهدا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه و التعرض لهم بألوان النكال والإيلام ، ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباحت في الحرم الآمن منن دمائهم وأموالهم و أعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملا للضيم ، وتوقعا للويل .

صاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية و التحقير قصد بها تخذيل المسلمين و توهين قواهم المعنوية ، فرمي النبي صلى الله عليه و سلم وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتا لاذعة وصورا مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير . وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقي الرحى . [38]

ووجدت قريش أنها لا تستطيع أن تنال من محمد صلى الله عليه و سلم وصحابته بكبير أذى ما لم ترفع عنه الحصانة التي كان يتمتع بها بحماية عمه أبي طالب ، ومن ثم أجمعوا على أن يكلموه في شأن محمد ، فذهب إليه وفد من أشرافهم [39] .فقالوا : " يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه.[40]

ولما رأت قريش تصميم النبي صلى الله عليه و سلم على دعوته ، وعمه أبو طالب يشمله بحمايته و الذود عنه ، ذهبوا إليه مرة ثانية وأخبروه بأنهم لا يصبرون على شتم آبائهم ، والطعن في آلهتهم ، و خيروه بين أمرين : إما أن يمنع ابن أخيه عن دعوته ، وإما أن يعلنوها حربا عليه وعلى ابن أخيه حتى يهلك أحد الفريقين .

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءونى فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

37) . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي . وقفات مع السيرة /مواقف دعوية من السيرة النبوية . أنظر : موقع علماء الشريعة .

38) . محمد الغزالي . فقه السيرة . مرجع سابق . ص101.

39) . على رأسهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل . أنظر : الطبري . تاريخ 223/2، ابن الأثير . الكامل . 43/2.

40) . ابن هشام . السيرة النبوية . 265/1.

أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر . حتى يظهره الله أو أهلك فيه . ما تركته)، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُك لشيء أبدًا وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجَمْعِهِم ** حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينًا

فاصدع بأمرك ما عليك غَضَاضَة ** وابْشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونًا (41)

رأت قريش أن تجرب وسيلة أخرى مع أبي طالب علها تفيد في رفع الحصانة عن محمد ، وتركه لهم ينهشون فيه وفي أتباعه . فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجملهم، فلك عقله(42) ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدا»(43).

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم وبني المطلب إليه في حلف واحد على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلمهم ومشركهم على السواء، وأجار ابن أخيه محمدا إجارة مفتوحة لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية تسخر من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب فإنه أمعن في غيه وضلاله . (44)

لقد كان كسب النبي صلى الله عليه وسلم عمه في صف الدفاع عنه، نصرًا عظيمًا، وقد استفاد صلى الله عليه وسلم من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومنع من أي اعتداء يقع عليه، وأعطى حرية التحرك والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي صلى الله عليه وسلم للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله. (45)

---

41) ـــ ابن هشام . السيرة النبوية .267/1، الطبري . تاريخ . 226/2-227، ابن الأثير. الكامل . 42/2-43، المباركفوري . الرحيق المختوم . مرجع سابق 114-115.

42) . أي ديته إذا قتل .

43) . ابن كثير . البداية و النهاية . 48/3.

44) . أنظر : الصلابي . السيرة النبوية. مرجع سابق ، ص131.

45) . المرجع نفسه . ص133.

رأى المشركون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يزيدون يوما بعد يوم ، وأن المفاوضات غير المباشرة لم تؤت أكلها ، وأن البطش و التعذيب لم يصد المؤمنين عن دينهم ، فقرروا اللجوء إلى المفاوضات المباشرة ، ليس مع أبي طالب ولكن مع صاحب الدعوة نفسه محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أسلوب الإغراء بالمال و الجاه ، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة وكان رجلا قوي الحجة حسن العرض ،فقال يفاوضه بمعسول الكلام : " يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول صلى الله عليه وسلم: (قل يا أبا الوليد أسمع).

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال: (فاسمع منى)، قال:أفعل، فقال: { بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه و استغفروه ، وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهو بالآخرة هم كافرون } [فصلت:1: 5]. ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك).
قام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. (46)

لقد تخيّر رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآيات من الوحي المبارك ليعرّف محدثه حقيقة الرسالة و الرسول . إن محمدا عليه الصلاة و السلام يحمل كتابا من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خبال. وهو . قبل غيره . مكلف بتصديقه و العمل به و النزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه و يستغفروه فمحمد عليه الصلاة و السلام ألهج الناس بالاستغفار وألزمهم للاستقامة ، وما يطلب ملكا و لا مالا و لاجاها ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعفّ عنه وترفع أن يمد يده إليه ، وبسط العطاء مما سيق إليه من خيرات ، فأنفق واديا من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة غير مُعقِّب لذريته درهما .

إن عتبة . باسم قريش . يريد أن يترك محمد عليه الصلاة و السلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس . !...ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها !. ولذلك بعدما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائما من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هائجا من عاطفته : " فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد

46) ، ابن هشام . السيرة النبوية . 1/293-294.

وثمود " ، لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه ، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تده محمدا و شأنه!![47].

3 . الاضطهاد و المقاطعة ...و التحدي :

بعد أن أخفق الإغراء و الإرهاب في تعويق الدعوة ، وصد نبيها عن الجهر بالبلاغ ، أدركت قريش أن ما تصبوا إليه بعيد المنال ، فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على رسول الله صلى الله عليه و سلم وعلى المؤمنين ، وتبذل آخر ما في وسعها للتنكيل بهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم .

فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسَلاَ جَزُور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [وهو عقبة بن أبي معيط] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم [أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا] ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: [اللهم عليك بقريش] ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: (اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط) . وعد السابع فلم نحفظه . فوالذي نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى في القَلِيب، قليب بدر.[48]

وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه. وفيه نزل: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [سورة الهمزة:1] قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًا، ويؤذيهم. [49]

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًا أنبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل، وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم.[50]

---

47) . محمد الغزالي . فقه السيرة . مرجع سابق ، ص108-109.

48) . صحيح البخاري . كتاب الوضوء . باب إذا ألقي على المصلي قذر أو جيفة . 37/1.

49) . ابن هشام . السيرة النبوية . 356/1-357.

50) . المصدر نفسه . 361/1-362.

وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفي ممن ينال من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى:{ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم:10: 13].

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة:31]، وكان يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى في الحرم، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا، وتوعده، فأغلظ لـه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددنى؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى ناديًا. فأنزل الله {فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق:17، 18]. وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له:{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} [القيامة:34، 35] فقال عدو الله : أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها.(51)

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا).(52)

وأما أصحابه رضوان الله عليهم فقد تجرع كل منهم ألوانا من العذاب حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي ، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئا . ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج عن العذاب الذي لاقاه كل منهم . ولكنا مكتفون ببعض الأمثلة في هذا المقام :

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ،إجتمعت عليه قريش في المسجد فداسوه بأقدامهم وضربوه بنعالهم ضربا شديدا على وجهه ،حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت).

وهذا بلال بن رباح رضي الله عنه الذي أصبح مضرب المثل في قوة الإيمان و الصبر على البلاء ، ولم يكن لبلال رضي الله عنه ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكي، يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي، أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة، أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكي تهز أركانه وتزلزل أقدامه.

---

51) . المباركفوري . الرحيق المختوم .مرجع سابق ، ص103-104.

52) . رواه مسلم في صحيحه

وبعد كل محنة منحة فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه مبشرًا إياه بالجنة، فقد قال صلى الله عليه وسلم لبلال: «... فإني سمعت خشف نعليك بين يدي في الجنة»[53].

وأما مقامه عند الصحابة فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا» يعني بلالا[54].

أما عمار بن ياسر رضي الله عنه فكانت بنو مخزوم يخرجون به وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما بلغني صبرا آل ياسر موعدكم الجنة وقد روى البيهقي عن الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال ابشروا آل عمار وآل ياسر فان موعدكم الجنة فاما أمه فقتلوها فتأبى إلا الاسلام . [55]

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه كان أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال[56]، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعب الحيس[57] عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل، ولما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرًا، فبصر به عثمان بن طلحة[58] يصلي، فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[59].

ويعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا من تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قويًا لا يضعف ولا يتكاسل ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته فيسقط في جحيم النعيم الخادع.

لقد ودع ماضيه بكل ما فيه من راحة ولذة وهناءة، يوم دخل هذا الدين وبايع تلك البيعة، وكان لا بد له من المرور في درب المحنة لكي يصقل إيمانه ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئنا راضيا رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة[60]، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصرا بدينه وإيمانه، مطمئنا أعمق الاطمئنان، ثابتًا أقوى الثبات ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى. [61]

---

(4) صحيح مسلم (1910/2) رقم الحديث 2458.

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد (232/3) ورجاله ثقات، ابن كثير . البداية و النهاية . 43/3.

55) . ابن كثير . البداية و النهاية . 49/3.

56) الطبقات الكبرى .116/3.

57) القعب: القدح الغليظ، والحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن.

58) . الذهبي . سير أ علام النبلاء . 10/3-12.

59) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص107.

61) . الصلابي . السيرة النبوية . مرجع سابق، ص156.

وممن أوذي في سبيل الله من الصحابة المستضعفين خباب بن الأرت رضى لله عنه الذي كان حدادا فلما علمت سيدته (أم أنمار) بإسلامه كانت تربطه في عمود من البيت وتشعل الكور وتحمى الحديد وتجرد خباب من ثيابه وتكويه بالنار مرة بعد أخرى حتى يغشي عليه من التعذيب فتنتظر حتى يفيق ثم تعاود التعذيب، وكان المشركون يجذبونه من شعره جذبا شديدا ، ويلون عنقه ليا عنيفا ويلقونه على ظهره فوق حجارة محمية ثم يضعون على صدره صخرة فلا يستطيع القيام ، حتى أثرت هذه الحجارة الملتهبة في ظهره.(62)

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنما طال النساء أيضا قسط كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهن كسمية بنت خياط وفاطمة بنت الخطاب ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنهدية وابنتها، وأم عبيس، وحمامة أم بلال وغيرهن(63).

وجدت قريش أن المسلمين يزدادون يوما بعد يوم وسياسة التعذيب والاضطهاد لم تثنهم عن عقيدتهم، ..ومسلمي مكة يجاهرون بصلاتهم منذ أسلم عمر، ورسول الله ممتنع ببني هاشم لذا فكرت قريش في مواجهة شاملة تواجه بها محمداً وأصحابه ومن يناصرهم فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمد إليهم فيقتلوه، وكتبوا ذلك في صحيفة عرفت بـ"صحيفة المقاطعة" وعلقوها في جوف الكعبة ضمانا لتنفيذها وأخذوا العهود والمواثيق فيما بينهم للالتزام بتنفيذ ما جاء بالصحيفة(64).

وجاء في الصحيفة : (ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل). وفي رواية: ... على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم(65).

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم . إلا أبا لهب . وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

واشتد الحصار على المسلمين ومن ناصرهم من بني هاشم وبني المطلب ، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

---

62) . محمد أحمد حسب الله . في السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص44.

63) انظر: سليمان السويكت . محنة المسلمين في العهد المكي ، مرجع سابق ، ص116، 117.

64) . محمد أحمد حسب الله. في السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص56.

65) . ابن هشام . السيرة النبوية. 350/1،ابن القيم . زاد المعاد . 46/2 ، ، ابن الأثير . الكامل. 87/2.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يأتى بعض فرشهم.(66)

وتحمل الرسول صلى الله عليه و سلم ومن معه عناء هذه المقاطعة بصبر وجلد وكانت الآيات القرآنية تنزل لتزيدهم ثباتاً وتطالبهم بالصبر وتحدي الحصار والقطيعة، ولم يثن ذلك الرسول عن نشر دعوته فكان يخرج في مواسم الحج والتجارة يدعو كل من وفد مكة إلى الإسلام، ولقد عاب بعض هؤلاء على قريش موقفها من بني هاشم وأعجبوا بثبات محمد وأصحابه فاستحسنوا الإسلام فاعتنقوه وكان هذا على عكس ما أرادت قريش من المقاطعة .

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، وكان الذي تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد قال: قد وجدت لك ثانيًا: قال من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثًا: قال: قد فعلت، قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال أبغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال نعم، ثم سمى له القوم، فاتَّعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة ابن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كُتبت فيها، ولا نقر به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوورِ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

66) . المباركفوري. الرحيق المختوم . مرجع سابق ، ص129.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) [67]، وروى ابن إسحاق أن الله عز وجل أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك عمه فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم بذلك، وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المطعم بن عدي وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالئ أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشِّعب[68].

4 . الهجرة إلى الحبشة :

أدرك رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد سنتين من الجهر بالدعوة ، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار ، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم ، مصممة على استخدام أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد . ورأى أن يمنح المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ، ويستعيدون قواهم النفسية و الجسدية ، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهو أقدر وأصلب ..وعسى الله أن يحدث . خلال ذلك . أمرا كان مفعولا ، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة.[69] قائلا لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه . فخرج المسلمون إليها مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام . [70]

ويمكن أن نعتبر الهجرة إلى الحبشة مظهر من مظاهر الواقعية في رسم خطوات العمل الدعوي والحفاظ على الأتباع ، وحماية المنجزات ، دون تجاهل الواقع أو التعالي عليه أو إسقاطه من الحساب ، فالنبي عليه الصلاة و السلام لم يتكل على كونه نبيا معصوما مؤيدا بالوحي ومسددا به ، بل كان شديد العناية بواقعه ، والأوضاع من حوله ، ويكيّف خطواته ومواقفه على ضوئها و التحرك بإيجابية نحو الأهداف العليا للرسالة الخاتمة . ولعل هذه الهجرة تخدم الدعوة من وجهين :

الوجه الأول : أنها إنقاذ للدعوة من أن تجهض في أيامها الأولى ، لأن هؤلاء المسلمين إن بقوا في مكة وهو يتزايدون يوما بعد يوم فستشعر قريش بخطرهم عليها ، وليس ببعيد أن تقوم بحرب استئصال لهم باسم حماية الآلهة ، وسيؤيدها العرب كلهم في ذلك ، ولكنهم إذا هاجروا فسيبقى رسول الله محمد عليه الصلاو و السلام في مكة ضعيفا لا يؤبه له، في نظرهم وسترافق هذه النظرة الاستهانة به و بدعوته .

الوجه الثاني : انطلاق صوت الإسلام على أيدي دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لا يستهان به . وفي اختيار رسول الله محمد صلى الله عليه و سلم الحبشة بالذات لتكون مهجر أصحابه على أن رسول الله قد درس الموقف

---

67) . انظر: ابن كثير . السيرة النبوية . 43/2: 50، 67: 69.

68) . ابن إسحاق . السير والمغازي . ص156: 162.

69) . عماد الدين خليل . دراسة في السيرة . ط15، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1997م ، 65.

70) . ابن هشام . السيرة النبوية . 31/1، ابن الأثير . الكامل . 59/3. ابن كثير . البداية و النهاية. 60/3.

جيدا ، وعرف أحوال دول العالم آنذاك ، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة حاليا هي الحبشة لأن فيها ملِكا لا يظلم عنده أحد . وبذلك يظهر لنا أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان يفكر على مستوى دولة ، ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون دولة ، بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد . وإذا كانت كتب السيرة قد أطلقت على السنوات الثلاث الأولى من فجر الدعوة الإسلامية اسم " الدعوة السرية " فإن لنا أن نطلق على العهد المكي كله : دور التخطيط السري أو العمل السري لقيام الدولة الإسلامية .[71]

و لنا أن نتساءل ، لماذا اختار الرسول صلى الله عليه و سلم الحبشة دون غيرها من البلاد ؟ ، ما السر في الاختيار ؟.ان سر هذا الاختيار يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

فالهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً بالخطر، فان المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصباً لدين الآباء (الوثنيّة).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيّون أو اليهود، من الجزيرة العربية فلم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لان تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبيّ وطائفي، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرف ثالث في حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربيّ أساساً، فكيف يمكن الهجرة الى مناطقهم والتعايش معهم؟! .

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيرانيّ الملكيّ، ولم تكن السلطاتُ الإيرانية آنذاك لتسمح بإقامة المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة انه لما وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وآله إلى «خسرو برويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إليَّ هذا الذي يذكر أنه نبيٌّ، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني»!!.

وكذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنفوذ الايرانيّ كاليمن.

وأمّا «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافاً الى ان «اليمن» و«الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربُط قريشاً بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فإذا كان المسلمون يلجأون إليهما أُخرجوا منهما . بطلبٍ ن قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم [72].

وهناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة عن: لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة؟ منها:

أ- النجاشي العادل:

ب- النجاشي الصالح:

---

71) ـ محمد رواس قلعه جي . قراءة سياسية للسيرة النبوية .ص57، محمد حسن العيدروس. الدولة الإسلامية الأولى . ط1، القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2001م ، 97.

72 . السيرة المحمّدية مدرسة الأجيال . جعفر الهادي .

ج- الحبشة متجر قريش:

د- الحبشة البلد الآمن:

هـ- محبة الرسول صلى الله عليه وسلم **للحبشة ومعرفته بها:**

و . أن ملك الحبشة لا سلطان للقبائل العربية عليه ، ولذلك لما أرسلت قريش وفدها تطلب أن يرد إليها المهاجرين لم يفعل .

ز. أن قرب المسافة بين مكة و الحبشة يمكن أن يكون أحد العوامل التي تدخل في هذا التقدير ، مما يدل على حسن تخطيط النبي صلى الله عليه و سلم وعظيم حكمته .

و إن المتأمل في أسماء الصحابة الذين هاجروا لا يجد فيهم أحدًا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عددًا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنًا للقبيلة وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده، هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ولم يذكر هجرتهم للحبشة.

5 . عام الحزن :

اجتمعت الأحزان على رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو لم يكد يخرج من الشعب حتى توفيت أم المؤمنين السيدة : خديجة بنت خويلد الأسدية ، زوج رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات ، فحزن عليها ونزل في حفرتها ودفنها بيده الشريفة في منطقة الحجون ، وبفقد خديجة رضي الله عنها ، فقد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم الزوجة الوفية المخلصة ، التي آمنت به ورعته وواسته ووقفت إلى جانبه في محنته تخفف عنه بعض ما يعانيه من أذى المشركين ، ولهذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم يثني عليها كثيرا ويذكرها بالخير ، فهي رضي الله عنها أم أولاده ك زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء والقاسم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر ، رضي الله عنهم أجمعين ولم يأته ولد من غيرها ، سوى إبراهيم من مارية القبطية . ولهذا كله ووفاء منه ، صلى الله عليه وآله وسلم بشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب {5} . ثم وبعد أيام معدودة من وفاة خديجة رضي الله عنها ، توفي عمه أبو طالب بن عبد المطلب ، الذي كان كريما في مروءة وشرف ، ونخوة وحمية ، وعطف وحنان ، ورأفة وشفقة ، كل هذه الصفات الحميدة ، جعلت أباه عبد المطلب يوصيه بكفالة رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم من بعده وكان أبو طالب يحب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يكاد يفارقه أبدا في حله وترحاله ، وبقي في بيته حتى تزوج من خديجة رضي الله عنها ، ووقف أبو طالب بجانب ابن أخيه عندما بعث ، يمنعه من أذى المشركين ويحميه من اعتداءاتهم ، وكان لا يكذب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به ، ويصدقه فيما يقول ، ولكنه لم ينطق بالشهادتين ، رغم إلحاح رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عليه للنطق بهما عندما اشتد به المرض ، وكان بعض المشركين أثناء ذلك يقولون له : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فيجيبهم قائلاك على ملة عبد المطلب ؟ لكن أبا طالب أوصى قومه قبل وفاته قائلا: [لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره ، فاتبعوه وصدقوه ترشدوا] فقالوا له : يا أبا طالب إنك تعلم مقامك عندنا وتعلم ما بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه أن يكف عنا فنكف عنه ، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه . فأرسل إليهم وقال : يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك

ليعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " . فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه " فقالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب ، ثم إن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم كرر دعوة عمه إلى الإيمان . فقال أبو طالب : يا ابن أخي لو لم تظن قريش أني قلتها جزعا من الموت لقلتها حتى أسرك . وحزن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، حزنا عميقا على عمه أبي طالب ، فقد فقد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم المدافع عنه ، والذي أرخص نفسه في سبيل منع رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم من أذى المشركين وتكذيبهم له ، ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم العام الذي توفيت فيه خديجة و أبو طالب "عام الحزن" ، وانتهز المشركون هذه الفرصة السانحة ، لينالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليزدادوا من آذاهم له حتى نثروا التراب على رأسه عندما أراد أن يدخل بيته ، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي . فقال لها رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " لا تبكي يا بنية إن الله مانع أباك " . وأضاف قائلا :ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب [73].

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يفقد الرسول عمه أبا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان في الظاهر حاميا له ومؤنسا ، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولاهما : أن الحماية و العناية و النصر ، إنما يأتي كل ذلك من الله عز وجل . ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين و الأعداء ، فسواء كان ثمة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر و التوفيق .

ثانيتها : ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاء أو عذابا أو اضطهادا ، وإنما معنى العصمة التي تعهد بها الله عز و جل بقوله : " و الله يعصمك من الناس " (المائدة 67/7/5)، العصمة من القتل ومن أي صد أو عدوان من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية ، فقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء من ذلك قدرا غير يسير ، وذلك لا ينافي العصمة التي وعد بها أنبياءه و رسله...

فلو أن النبي صلى الله عليه و سلم نجح في دعوته بدون أي مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه و المسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح ، ولاستثقلوا المصائب و المحن التي قد يجدونها في طريقهم إلى الدعوة الإسلامية .

أما ، و الحالة هذه ، فإن مما يخفف المحنة و العذاب على المسلمين شعورهم أنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله صلى الله عليه و سلم وأنهم يسيرون في الطريق ذاتها التي أوذي فيها رسول الله [74].

---

73) . ابن هشام . السيرة النبوية . ص99، الطبري . تاريخ. 2/343-344، ابن سعد . الطبقات 1/1/141، ابن الأثير . الكامل . 2/90-91.

74) . البوطي . فقه السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ص147-148.

6 . في الطائف :

أدرك الرسول صلى الله عليه و سلم أن القيادة الوثنية في مكة مصرة على الوقوف بوجه دعوته، ماضية في إلحاق أذاها به ، واضطهاد أتباعه وفتنتهم عن دينهم ، فرأى أن يتحرك ضمن إطار سنن الله الاجتماعية . مع كونه مؤيدا بالوحي و مشمولا بالرعاية الإلهية . لكونه بلا ريب القدوة النموذجية للمسلمين في كل العصور في علاقتهم بالكون و الحياة و الناس .

فقام عليه الصلاة و السلام بجملة من التدابير اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهجية المحكمة ، التي شكّل البحث عن سند اجتماعي وموقع جديد للانطلاق في بناء الدولة محورها الرئيس .

فالدعوة بدون سند اجتماعي قوي لا يُنتظر منها إنجاز عملية التغيير المنشود ، كما لاحظ ذلك ابن خلدون حين نصّ . في إطار سنة التدافع . على أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم [75].

وقع اختياره عليه الصلاة و السلام على الطائف حيث تقطن كبرى القبائل العبية بعد قريش ، فغادر مكة في شوال من السنة العاشرة للبعثة ، يصحبه زيد بن حارثة ، فلماذا اختار الطائف ؟ .

1 . لأن الطائف تقع على مسافة 120كم وهي قريبة من مكة ،

2 . الطائف بلد زراعي ، كثير الخيرات ، مشهورة بخصبها وجودة محصولاتها ، ولو قدر الله له أن يحتضن الدعوة الإسلامية ويأوي أهلها لوجد رسول الله و أصحابه بحبوحة من العيش تساعدهم على نشر الدعوة ، وإقامة الدولة التي ستحتاج إلى كثير من المال لتسليح جندها وإقامة مرافقها [76].

3 . الطائف تمثل العمق الإستراتيجي لملأ قريش،

4 . الطائف بلد في أعالي الجبال ، و الجبال تؤمن الحماية لمن يأوي إليها بما فيها من التضاريس ،

7 . بشائر النصر من يثرب :

استطاعت التعاليم الإسلامية أن تحقق بصمود أتباعها أمام ملأ قريش مبدأ جديدا هاما ن وهو أن واجب الفرد لم يعد يقتصر على قبيلته ، وإنما صار يشمل المؤمنين بالدعوة الإسلامية على اختلاف القبلية التي ينتمون إليها ، وبدأ هذا المفهوم الجديد يهز الحياة القبلية كلها برغم صلف قريش وضراوة الملأ فيها للدفاع عن بقاء تلك الحياة القبلية. ولم يعد أمام الرسول الكريم من سبيل سوى نقل هذا المفهوم و الدعوة التي استند إليها هذا المفهوم الجديد إلى ميدان جديد ، أشبه بالشتل من النبات الذي لا بد

---

75) . أنظر : ابن خلدون . المقدمة . بيروت : دار الفكر ، 2002م ، ص160، أمحزون . منهج النبي في الدعوة ..مرجع سابق ، ص 123.

76) . محمد حسن العيدروس . الدولة الإسلامية الأولى . مرجع سابق ، ص113.

من غرسه في أرض جديدة تكون أكثر ملاءمة لنموه وازدهاره . واتضح للرسول الكريم أن بيئة مكة قد أصبحت بعناد ملأ قريش معقلا للنظم القبلية وعاصمة للعصبية الجاهلية ، ولا بد من البحث عن تربة جديدة غير تربة قريش(77).

عن جابر بن عبدالله قال: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول ألا رجل يعرض على قومه فان قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي. "(78).

" وذكر قاسم بن ثابت من حديث عبد الله ابن عباس عن علي بن أبي طالب في خروجهما هو وأبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال علي: وكان أبو بكر في كل خير مقدماً فقال ممن القوم فقالوا من شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمر وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمر قد غلبهم جمالاً ولساناً وكانت له غديرتان وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضي الله عنه فقال له أبو بكر رضي الله عنه كيف العدد فيكم فقال مفروق أنا لنزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة فقال أبو بكر كيف المنعة فيكم فقال مفروق علينا الجهد ولكل قوم جد فقال أبو بكر فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم فقال مفروق إنا لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى وأنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح والنصر من عند الله يديلنا ويديل علينا أخرى لعلك أخو قريش فقال أبو بكر أوقد بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا فقال مفروق قد بلغنا أنه يذكر ذلك فإلام تدعو يا أخا قريش فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله وأن تؤوني وتنصروني فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد فقال مفروق وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " فقال مفروق وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون " فقال مفروق دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وكأنه أراد أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال هذا هانئ ابن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا فقال هانئ قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر وإنا إنما نزلنا بين صريي اليمامة والسماوة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذان الصريان فقال أنهار كسرى ومياه

---

77) . ابراهيم أحمد العدوي . تاريخ العالم الإسلامي . عصر البناء و الانطلاق . مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ، 1994م 61/1. .

78) ـــــ ابن سيد الناس . عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . مؤسسة عز الدين ط 1406هـ، ج 201/1-204

العرب فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما يكرهه الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسأتم في الرد إذ فصحتم في الصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من حاط من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نسائهم أتسبحون الله وتقدسونه فقال النعمان بن شريك اللهم لك ذا فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا " ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقال يا أبا بكر يا أبا حسن أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتجاوزون فيما بينهم قال ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا صدقاً صبراً ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك كله يدعو إلى دين الله ويأمر به كل من لقيه ورآه من العرب إلى أن قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فلم يبعد ولم يجب ثم انصرف إلى يثرب فقتل في بعض حروبهم. (79).

واهتزت قبيلة الخزرج للأنباء التي ذكرها رجال الأوس عن النبي الجديد في مكة ورأوا أن أحوالهم في يثرب تدفعهم إلى معرفة دهوته ، ذلك أن سكان يثرب من الأوس و الخزرج قد سمعوا من جيرانهم اليهود بقرب ظهور نبي ، وأن اليهود يستغلون هذه النبوة لفرض سيادتهم على يثرب كلها ، ولذا حين خرج إلى سوق عكاظ نفر من بني عبد الأشهل من الخزرج والتقوا بالنبي كانوا أسبق أهل يثرب إلى قبول الدعوة الإسلامية ، حتى لا ينال الأوس أو اليهود قصب السبق عليهم في هذا السبيل . وتجلت في مناقشة هذا الوفد الخزرجي مع رسول الله صلى الله عليه و سلم مدى استجابة قبيلة الخزرج لمبدأ اتساع واجب الفرد إلى خارج نطاق القبيلة على نحو ما تدعو إليه تعاليم الإسلام ، وصلاحية هذا المبدأ لأن يكون طليعة لتنظيم سياسي للمسلمين في يثرب يعتز به الرسول شخصيا(80) . فقالوا للرسول : " إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك " (81).

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني

---

79) . ابن سيد الناس . عيون الأثر . 1/201-204.

80) . العدوي . تاريخ العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، 1/62.

81) . ابن هشام . السيرة النبوية. 1/428.

عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب» (82).

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء، وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فكان يسمى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم.

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة(83).

فى موسم الحج التالى وفد مع حجاج يثرب ثلاثة و سبعون رجلا، و امرأتان من المسلمين و معهم مصعب ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم و سر الرسول بأنتشار الإسلام بين أهل يثرب ووجد فيهم المنعة و النصرة و الحماية، و وجد المسلمون فى يثرب الملجأ والملاذ والمأوى فتاقت نفوسهم وهفت اليها أفئدتهم و تمنوا ساعة الخلاص .

تواعد الرسول و مسلمو يثرب اللقاء فى العقبة فى ليلة الثاني عشر من ذي الحجة على أن يكون سرا حتى لا تعلم قريش أو مشركو يثرب به فيفسدوه، ولما حان الموعد بدأ المسلمون يتسللون تسلل القطا–وهو طائر معروف بالخفة و الحذر–إلى مكان الاجتماع و خرج إليهم الرسول و معه عمه العباس وكان لا يزال مشركا و لكنه أراد أن يتثبت لابن أخيه من أهل يثرب، و كان أول من تكلم فقال : يا معشر الخزرج، ان محمدا منا حيث علمتم، و قد منعناه من قومنا ممن على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه و منعه فى بلده، و أنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم و اللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه، و ما منعوه ممن خالفه، فأنتم و ما تحملتم من ذلك، و إن ترون أنكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزّ و منعه من قومه و بلده، فقال الخزرج للعباس: قد سمعنا ما قلت ، تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك و لربك ما أحببت، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم و أبنائكم، فأخذ البراء ابن معرور يده، و قال:نعم و الذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا– كناية عن أنفسهم ونسائهم–فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، و أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

---

82) صحيح مسلم . 41- 1709. .

83) . الصلابي . السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص239-240.

وأراد الأنصار أن يستوثقوا لأنفسهم أيضا من الرسول فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا و إنا قاطعوها(يريد اليهود)فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال:"الدم الدم والهدم الهدم"،يعنى أنا منكم و أنتم منى أحارب من حاربتم و أسالم من سالمتم

وقال العباس بن عبادة الأنصارى، مؤكدا البيعة في أعناق الأنصار:يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل، قالوا:نعم، قال:إنكم تبايعونه على حرب الأحمر و الأسود من الناس، فأن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة،وأشرافكم قتلا، أسلمتموه فمن الآن، فهو و الله خزي في الدنيا و الآخرة إن فعلتم، و إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكه الأموال و قتل الأشراف فخذوه، فهو و الله خير في الدنيا و الآخرة فأجاب الأنصار : نأخذه على مصيبة الأموال و قتل الأشراف، أبسط يدك يا رسول الله لنبايعك فبسط يده فبايعوه .

وطلب الرسول أن يختاروا من بينهم إثنا عشر نقيبا فاختاروا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس،و قال الرسول لهم:أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم فأجابوه.

وفى الصباح علمت قريش بأمر البيعة و أن أهل يثرب قد بايعوا محمدا ليخرج إليهم ، و يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و أولادهم، فوقع في أيديهم و طاش صوابهم و خرجوا مسرعين إلى منازل أهل يثرب يسألونهم:أنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من بين أظهرنا و تبايعوه على حربنا، وإنا و الله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا و بينهم منكم، فسكت المسلمون و قام أهل يثرب يحلفون لهم ما كان من هذا من شئ، و ما علمناه، وعاد أهل يثرب إلى بلدهم، و لكن قريشا تيقنت خبر البيعة فخرجوا عليهم يظفرون بأهل يثرب و لكنهم لم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة ، فكتفوه و عادوا به إلى مكة يضربونه و يجرونه من شعره و لم يخلصه من بين أيديهم إلا مطعم بن عدى الذي أجاره فعاد إلى يثرب (84).

وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية و تقرر فيها أن يهاجر الرسول و المسلمون إلى يثرب على أن يقوم الأنصار بحمايتهم و نصرتهم و أصبح أمر الهجرة محققا و لكنها مسألة وقت فقط .

الهجرة النبوية إلى المدينة دواعيها و نتائجها

1. أسباب الهجرة:

شاءت حكمة الله عز و جل أن يسبق الأوس و الخزرج إلى اعتناق الإسلام ويستضيئوا بنوره بعد أن أبت قريش إلا البقاء في ظلمات الجهل مصرة على عنادها ومقاومتها للدعوة والداعية .و لكن بيعتي المعقبة الأولى و الثانية كانتا نقطتا تحول في مسيرة الإسلام وإيذانا وتمهيدا للهجرة النبوية ومقدمة لها بتمهيد كل الأسباب لإنجاحها و يمكن تلخيص دواعي الهجرة فيما يلي :

---

84) ــ راجع في بيعة العقبة الثانية : ابن هشام . السيرة النبوية . 2/31-58، الطبري . تاريخ . 1/562. ابن الأثير . الكامل . 2/68، ابن كثير . البداية والنهاية .3/121، ابن القيم . زاد المعاد . 3/34-42.

1. اضطهاد قريشا للمسلمين عامة والمستضعفين خاصة، و شددت حصارها على النبي –صلى الله عليه وسلم– فأصبحوا بين مفتون في دينه ،ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد ، وقد مرت الإشارة إلى كل هذا فيما سبق فكان لابد من موطن تأمن فيه الدعوة والداعية وأنصارهما فلم تكن أحسن من المدينة التي اختارها الله دار هجرة رسوله وحددها في بشارات الأنبياء من قبل، فقد قال آخر الأساقفة الذي عاش معه سلمان الفارسي . رضي الله عنه .« **قد أظل زمان نبي ،وهو مبعوث بدين إبراهيم . عليه السلام . يخرج بأرض العرب ، مهاجَره إلى أرض بين حَرَّتين ،بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ،ولا يأكل الصدقة ،بين كتفيه خاتم النبوة** » /ابن هشام /السيرة / 1 /218

2 . و السبب الثاني: هو مبايعة الأنصار للنبي –صلى الله عليه و سلم– بقيام تحالف بينه و بينهم على النصرة ، بعد أن آمنوا بالإسلام لما يريد الله لهم من الكرامة بالسعادة والعز في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة.

أحست قريشا بالخطر و تجسد أمامها ويظهر هذا في قولهم لأهل المدينة بعد أن علموا بالبيعة ولم يتأكدوا منها : «**يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا و تبايعونه على حربنا ،وإنه و الله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم** » . (ابن هشام /السيرة/1/448)

شددت حصارها على النبي ρ خاصة بعد أن أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فكان ذلك مما زاد في حقدها و مضاعفة رقابتها على النبي ρ قال ابن سعد : «**فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كَلِبت قريش و حُرِبوا –سلبوا أموالهم– وأغتاضوا على من خرج من فتيانهم**»/الطبقات الكبرى/م1/القسم1/152

هما سببان رئيسيان و هناك أسباب وعوامل أخرى تندرج ضمنهما .

2– هجرة المسلمين إلى المدينة: بعد أن أصبح للنبي ρأنصارا من أهل المدينة أذن لأصحابه بالهجرة بعد أن أذن الله له بذلك فقال : «**قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها** » /بن سعد:طبقات/م1/ق1/152، صحيح البخاري/ج4/ص:71باب هجرة النبي ρ و حثهم على ذلك، فقال أيضا : «**إن الله –عز و جل– قد جعل لكم إخوانا و دارا تأمنون بها** » الطبقات/م1/ق1/152

فخرجوا سرا أفرادا و جماعات و بقي النبي ρ بمكة ينتظر إذن الله له بذلك ، و كان أول من هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بسنة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد فمنع بنو مخزوم زوجته أم سلمة من الهجرة معه لأنها منهم ، وأخذ قوم عبد الله ابنها منها ففرقوا بينها وبين زوجها وابنها فاشتد بكاؤها حتى رَقَّ لحالها أحد أقاربها فحث قومه على السماح لها باللحاق بزوجها ففعلوا، ورد إليها ابنها أيضا فلحقت بزوجها .

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجته أم عبد الله –ليلى– ثم هاجر عمر بن الخطاب علانية في وضح النهار غير خائف من قريش ، و هاجر معه عشرين رجلا.

ثم هاجر صهيب الرومي فمنعته قريش أن يأخذ معه ماله، فقال لهم: « **أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم** » فدلهم على ماله وتركوه يهاجر، فقال النبي ρله لما علم بذلك : «**ربح صهيب،ربح صهيب**» ،و أنزل الله في حقه : **(و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ،و الله رؤوف بالعباد)** /البقرة/207.

نزل المسلمون على الأنصار فآووهم و نصروهم ووا سوهم .

خلت العديد من الدور بمكة من أهلها فعدت عليها قريشا فاستولت عليها، وعلى أموالهم،واتهم أبو جهل النبي ρ بأنه وراء ما حدث، إذ قال لعتبة لما شاهد خلو الديار من اهلها : «**هذا من عمل ابن أخي هذا– يشير إلى العباس- فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا**» /ابن هشام/السيرة/1/471).

ذلك هو منطق أبو جهل المعوج يفتن الناس في دينهم فإذا ما خرجوا يبحثون عن الأمن اتهمهم بما اتهمهم به . من الذي كان يَضرِب ولا يُضرب ويَقتل ولا يُقتل؟! أو ليس المشركين وإمامهم إلى النار فرعون هذه الأمة أبو جهل؟!.

لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ρو أبو بكر و علي بن أبي طالب أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج / ابن سعد /م1/ق1/152-153

3-هجرة النبي ρ و أبو بكر الصديق: إن نجاح الإسلام في تأسيس موطن له في المدينة علامة بارزة على أفول نجم قريش التي تحكمت في الحرم ، فلم تسلم ، ولم تترك أبناءها يسلمون بل وقفت حتى في وجه الزائرين تصدهم عن اتباع الإسلام و الاهتداء بهد يه. أحست قريش بالخطر بعد أن أصبح للنبي شيعة و أصحاب بالمدينة وهي طريق تجارتهم إلى الشام ، والنبي –صلى الله عليه و سلم- لا حق بهم اليوم أو غدا لامحالة.

ان النبي ρ ينتظر أمر ربه بأن يأذن له بالهجرة وكذلك الأنبياء قبله لا يقبلون على أمر ذي بال إلا بإذن من الله ، و كانت من المبشرات الدالة على قرب هجرته إذنهρ لأصحابه بعد الرؤيا التي رآها والتي مرت الإشارة إليها وما أوحى الله به إليه وأمره أن يدعوا به:**(و قل رب أدخلني مدخل صدق ،و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)** / الاسراء/80

وكان أبو بكر يهم بالهجرة و النبيρ يؤجله و يقول له : «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا** »،

فكان أبو بكر هو الصاحب .

أ- اجتماع قريش في دار الندوة و إجماعهم على قتل النبي –صلى الله عليه و سلم-ضلت قريش تقاوم الإسلام بمختلف الوسائل لمدة ثلاثة عشر سنة ، إلا أن هذه المقاومة باءت بالفشل الذريع ، وضاقت بالنبيρ درعا وبدعوته، خاصة بعد أن أصبح له شيعة وأصحابا بالمدينة مما دفعهم في أواخر شهر صفر من السنة الثالثة عشر للبعثة أن يجتمع رجال قريش في دار الندوة لتحديد مواقفهم تجاه الدعوة والداعية ،تم الاجتماع بحضور قادة الشرك ودار النقاش وطرحت في هذا الاجتماع التاريخي ثلاث مقترحات هي : نفي النبيρ [إخراجه] فأبعد هذا الرأي ، وإما حبسه فلا يترك يتصل بغيره فأبعد هذا الاقترا ح أيضا ، و لكن أبا جهل تقدم بالرأي الثالث هو قتل النبي ρ إذ اقترح جمع أربعين شابا من مختلف القبائل فيضربونه ضربة واحدة فيتفرق دمه فيهم فيعجز بنو هاشم عن الأخذ بالثأر فيقبلون بالدية ، فقبلوا هذا الرأي وافترقوا عليه وقد أشار القرآن إلى هذه المقترحات الثلاثة، فقال عز و جل : **(و إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين)** الأنفال /30

كانوا يمكرون وكان الله يد بر لنبيه أمره بالحفاظ عليه ليتم به النعمة و يكمل على يديه أمر الدين .ذلك آخر مواقفهم ، فالكفر لا يملك إلا قوة القهر والقتل إذا عدم الحجة.

-ب- **تطويق منزل النبي –صلى الله عليه و سلم- لتنفيذ المؤامرة:** أوحى الله إلى نبيه أن لا ينام في فراشه هذه الليلة فلما مضى منتصف الليل جاء المجرمون لتنفيذ ما عزموا عليه :فكانوا كمثل رجل أخرق بليد ينفخ على الشمس ليطفئ نورها،و لكن هيهات، فالله متم نوره و لو كره الكافرون .

أخذ الزهو والسرور أبو جهل و كأنه متأكد من نجاح مسعاه، إذ قال مخاطبا العصابة المحيطة بالبيت في استهزاء وسخرية: **«إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأرض و إن لم تفعلوا كان له فيكم دبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ،ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها »** /السيرة/1/483 .

ما كان الله عز وجل ليفرط في نبيه ويَكله إلى هؤلاء السفهاء لينفذوا فيه جريمتهم، ألم يقل له-جل جلاله- : (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) /الطور/46 . ألم يأخذ الحق تبارك و تعالى على نفسه عهدا أن ينصر رُسُله و اتباع الرسل قال: **(إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)** غافر/51 ، و قد أكد ما وعد في قوله Y **(إلا تنصروه فقد نصره الله)** / التوبة/40

-ج-**فشل المؤامرة واختفاؤه و صاحبه في غار ثور:** كان النبي ρ قد أخبر أبو بكر الصديق بإذن الله له بالهجرة فأعد للأمور عدتها، فلم يكن يعلم بها إلا الصديق وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما ..

خرج النبي ρ على المحاصرين ودَرَّ على رؤوسهم ا لتراب وهو يتلوا قوله تعالى: **(يس و القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ... إلى قوله....فأ غشيناهم فهم لا يبصرون)** / يس/1-8

ترك علي بن أبي طالب لينام في فراشه وأخبره أنه لن يخلص إليه شيئا يكرهه، ليبقى من بعده ليرد الودائع إلى أصحابها و الذين كانوا قد أعطوها للنبي –صلى الله عليه و سلم- يحفظها لهم ابن هشام/1/485.

خرج النبي و اتجه إلى منزل الصديق ومن منزله اتجها جنوبا إلى غار ثور فاختفيا فيه ثلاثة أيام ، وجاءت قريش تتبع الأثر حتى انتهت إلى فم الغار الذي نسجت العنكبوت عليه نسيجها فضرب الله على أبصارهم فلم يروهما ، وحفظ الله نبيه و صاحبه من أن يصابا بسوء وكان النبي ρ غير خائف في حين كان الصديق على العكس من ذلك. وقال للنبي ρ لو نظر أحدهم إلى أسفل قدميه لرآنا فأجابه النبي –صلى الله عليه و سلم- «ما ظنك باثنين الله ثالثهما». تلك هي منتهى ثقته ρ في ربه بأنه لن يضيعه فهو معه بالحماية والتأييد والنصرة ،من نصر إلى نصر ، وأعداءه من خذلان إلى خذلان، ومن فشل إلى فشل وقد سجل المولى Y الحوار السابق في كتابه الكريم قال: **(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها و جعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا و الله عزيز حكيم)** /التوبة/40

تلك هي الحقيقة إن لله جنودا يهزم بها الباطل و ينصر بها الحق، و لم تكن هذه النصرة إلا بعد الأخذ بالأسباب :إعداد راحلتين للسفر، وكتمان ليلة الهجرة واكتراء دليل ماهر بمعرفة الطرق هو عبد الله بن أريقط، و تكليف عبد بن أبي بكر

الصديق بتسمُّع أخبار قريش نهارا ثم يأتيهما مساء فيخبرهما بما تقول ، و كان عامر بن فهيرة يأتي في كل مساء عند الغار بغنم لأبي بكر فيحلبان و يشربان كما ساهمت أسماء أيضا بتزويدهما بالزاد.

-د-النبي ρ وصاحبه في طريقهما إلى المدينة وسراقة يطاردهما أول النهار و يرجع آخره يدافع عنهما : كانت قريش قد جعلت مائة ناقة مكافأة لمن جاء بالنبي ρحيا أو ميتا و لكن بعد ثلاثة أيام قضوها في الغار وكفت قريش عن بحثها خرجا في صبيحة اليوم الرابع و معهما الدليل فأخذ بهم طريق الساحل على طريق غير مألوف وعر المسالك، كان الركب يتكون من أربعة أفراد النبي ρو صاحبه وعامر بن فهيرة والدليل عبد الله بن أُريقط .

كان سراقة في مجلس نادي قومه بمكة إذ أقبل رجل وأخبرهم بأنه شاهد أَسْوِدة على الساحل ولا أظنهم إلا محمد و أصحابه ،فعرف سراقة أنهم هم ، فقال: هم فلان وفلان على أفراد ليظلل قومه و يلحق بهم ليفوز بالجائزة ، ثم انصرف إلى منزله فأعد عدته و ركب فرسه ولحق بهم فلما اقترب منهم ساخت ساقا الفرس الأماميتين في الرمل ، وكان الرسول يقرأ القرآن ولا يلتفت في حين كان الصديق يكثر من الالتفات . أخرجت الفرس قدميها وواصل العَدْو، فحدث له مثل ما حدث في المرة الأولى ، فعرف أن الله مانع رسوله وأن أمره سيظهر فناداهم فعرَّفهم بنفسه وأمنهم ، وطلب من رسول الله ρ أن يكتب له كتابا أمان فكتب له ذلك بيد أبي بكر ثم عرض عليهما الزاد و المتاع فأبى النبي ρ أن يأخذ منه شيئا ، ثم رجع يصرف أنظار الناس عنهما انطلق راغبا في قتل النبي ρ ليفوز بالجائزة صباحا وعاد مساء يحرسه وصاحبه. / ابن هشام/485/1 و ما بعدها، ابن كثير البداية/177/3/و ما بعدها)

سبحان الله مقلب القلوب كيف يشاء من عدواة و مطاردة إلى دفاع ونصرة.

-د - النبي –صلى الله عليه و سلم- وصاحبه في طريقهما إلى المدينة:استمر الركب المبارك سائرا في الصحراء في شدة من الحر حتى انتهت الرحلة بالوصول إلى قباء حيث المنعة والنصرة و حيث إخوة الإيمان من المهاجرين والأنصار، وكانت قد ترامت الأنباء إليهم بخروجه من مكة فكانوا كلما صلوا الصبح خرجوا ينتظرون قدومه حتى إذا علت الشمس واشتد الحر رجعوا إلى بيوتهم ،وفي اليوم الثامن من ربيع الأول ولما عادوا إلى بيوتهم رآه أحد اليهود فصاح « يابني قيلة –أي الأوس و الخزرج –هذا صاحبكم قد جاء» ،فخرجوا لاستقباله مكبرين ،ثم نزل على كلثوم بن الهدم ، ومكث في قباء مدة أربعة أيام بنى خلالها أول مسجد أسس على التقوى، ثم لحق به علي بن أبي طالب بعد أن رد الأمانات إلى أهلها.

هـ- النبي – صلى الله عليه و سلم- إلى المدينة في :12/ربيع الأول /622/09/25 : فلما كان يوم الجمعة ركب ناقته و قصد المدينة فأدركته الجمعة عند بني عوف فصلاها في مسجدهم ،ثم واصل رحلته فوصلها عند الأصيل و خرج سكانها الكبار والصغار الرجال والنساء لاستقباله مكبرين: «الله أكبر جاء رسول الله ،الله أكبر جاء محمد –صلى الله عليه و سلم-» مكررين ذلك وبعضهم ينشد: « **طلع البدر علينا** ». ابن كثير/196/3-197 ، و تنافست العشائر من الأوس الخزرج فيما بينها في أن تأخذ بزمام ناقته لتكون إقامته بينهم فكان يقول لهم : **«خلو سبيلها فإنها مأمورة** » ،فكان كلما مرعلى حي عرضوا عليه أن ينزل حيث العدد والعدة والمنعة فكان يكرر عليهم قوله السابق ،حتى إذا أتت الناقة مربد –مكان كان يجفف فيه التمر – لغلامين يتيمين من بني النجار فبركت فيه ، وأخذ أبو أيوب الأنصاري رحله –أمتعته- فأدخله منزله و نزل عنده

حتى بنى منزله فتحول عنه، فكان من توفيق الله إياه أنه كان يحب أن ينزل عند أخواله بني النجار فبركت ناقته في حيهما /ابن هشام /السيرة /485/1 ، ابن كثير/ البداية والنهاية/166/3-167وما بعدهما .

4. ذكر بعض الحكم في هجرته –صلى الله عليه و سلم-:

1-اتخاده –صلى الله عليه و سلم- كل الوسائل و الأسباب لإنجاح الهجرة من سرية في الإعداد وكتمانه للأسرار عدا على أبي بكر.

2- استعانته بأهل الخبرة والكفاءة ولو كان مشركا باستئجاره لعبد الله بن أريقط الذي كان على معرفة تامة بالطرق المؤدية إلى المدينة.

3- حرصه –صلى الله عليه و سلم- على رد الأمانات إلى أهلها ولو كانوا ممن يعادونه فهو أمين مع أعدائه ومع أصحابه.

4- إطلاعه على ما تخططه قريش عن طريق تسمع أخبارها من قبل عبد الله بن أبي بكر ،ليخطط وفق المستجدات حرصا منه على إ نجاح الهجرة .

5-تأييد الله لنبيه بالحماية والنصرة في داره عندما خرج على المحيطين به ، وفي الغار ،وفي إعاقة سراقة بن مالك من أن يُلْحِقَ به أدى ،ثم أصبح من المناصرين له يدفع عنه و يصرف الناس عن اتباع الطريق الذي سلكه .

6-و الذي يستفاد أيضا أن الهجرة لم تكن هروبا من القتل بعد أن أحيط بداره وكذا بالنسبة لأصحابه إذ أن هناك من القراء الذين يربطون الوقائع بالزمان يحسبون أن هجرة النبي ρ كانت عندما أرادوا قتله ،كلا أبدا إذ الاقتران حصل و النبي –صلى الله عليه و سلم- يعد العدة و قد أخبر أبو بكر بإذن الله له و أمره أن يدعو بالآيات التي مرت الإشارة إليها .

7-إن دواعي الهجرة هي انعدام النصرة «**إلا تنصروه فقد نصره الله**» وقوله تعالى أيضا : «**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ...** » إلى قوله «**وينصرون الله و رسوله**» ، فبينت الآيات السبب والهدف هو نصرة الله ورسوله بنصرة دينه.و الذي يقال عن النبي ρ يقال عن المهاجرين ومن تبعهم بعد هجرته ρ لم تكن فرار من مواجهة الصعاب والإخلاد إلى الراحة ، وإنما كانت من أجل تحقيق الهدف السابق الذكر وهو قتال من قاتلهم والرد على من ظلمهم و آداهم ويؤكد هذا أيضا ما جاء في ميثاق المدينة " «**هذا كتاب من محمد النبي رسول بين المؤمنين و المسلمين من قريش وأهل يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم** »./**ابن** هشام /السيرة/501، أبو عبيد القاسم /الاموال/202

8-حرص النبي ρ على تأمين أرواح اتباعه فبقائهم بقاء للدين واستمرار للدعوة بتقديمهم في الهجرة حدبا عليهم وانتظارا لأمر ربه بالهجرة فلما خرج أكثرهم أذن الله له ، و شبيه بهذا ما كان يفعله في غزواته فعند الزحف يكون في المقدمة وعند العودة إلى الديار يكون في المؤخرة ،يحمل من يضعف به مركوبه و يساير من تعب

9-تصديق الأنصار لأقوالهم على ما عاهدوا عليه النبي ρ بأفعالهم بالتأييد و النصرة والمواساة والإيواء لأتباعه من المهاجرين ،و يدل هذا على صحة دينهم و قوة إيمانهم وسلامة سرائرهم من الأهواء و المطامع ضاربين المثل العملي على محبتهم لله ورسوله فمواساتهم لأصحابه مواساة له ونصرة له و للدين، فكان جزاء ذلك أن أثنى عليهم المولى عز وجل

فقال :(...و الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة)/الحشر /9 . و لا يثني الله إلا على من كان أهلا للثناء.

10-شدة و فاء المسلمين المهاجرين لدينهم والتضحية بالوطن والأهل والمال في سبيل أن يبقى لهم دينهم 11-و جوب الهجرة على كل مسلم إذا أودي في الله ومنع من ممارسة أداء شعائر الإسلام إلى دار يأمن فيها على دينه وعرضه و نفسه وماله .

12-تقديم أخوة الدين على أخوة النسب في الموالاة والنصرة بين الأنصار والمهاجرين مهما اختلف الديار والانتماءات القبلية والعرقية./ أبو زهرة/خاتم النبيين/1 /645-و ما بعدها - البوطي /فقه السيرة/183و ما بعدها - الغزالي/فقه السيرة/170 و ما بعدها

تلك هي بعض الحكم التي تستفاد من الهجرة ، فهي خطوة بارزة و تحول هام في مسيرة الإسلام إذ فرقت بين الحق والباطل و لأهميتها لم يجانب عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . الصواب عندما اتخذها مبدأ لتأريخ الأحداث التاريخية أيام خلافته، إذ كان من نتائجها قيام دولة إسلامية في المدينة المنورة ليس للشرك عليها سيطرة، ثم كان ما تلى ذلك من استكمال قواعد الإسلام و تطهير الأرض من الشرك....الخ .

6. إرهاصات النبوة:

أخذت خلوات محمد صلى الله عليه و سلم و انعزاله عن مجرى الحياة المكية الصاخبة تزداد و تتسع وهو يقترب من الأربعين ، حيث أعده الله سبحانه لأول لقاء مع وحيه الأمين من أجل تكليفه مسؤولية النبوة ، وإخراج الناس ـــ بها ـــ من ظلمات الجاهلية ودنسها إلى نور الإسلام و نقائه . فكان يغادر مكة بين الحين و الحين ، مجتازا أسوارها الجبلية ، منقلا خطواته الثابتة الواسعة غبر رمال الصحراء المترامية التي تحجب عنه البيوت و الأسواق ويغيبه الأفق وتستقبله شعاب مكة وبطون أوديتها ثم يلج بعيدا إلى جبل النور حيث ينتهي به المطاف هناك إلى غار هناك يدعى (غار حراء) ، فيمكث فيه الأيام و الأسابيع الطوال لا يعود إلى مكة إلا ريثما يتزود بالطعام و الماء ثم يقفل عائدا إلى المكان الذي سيبعث فيه إلى العالم كله . وتذكر الروايات أنه كان يجاور في حراء من كل سنة شهرا فإذا قضى شهره ذاك انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعا ثم عاد إلى بيته . (85)

أما عن إرهاصات نبوته قبل بعثته صلى الله عليه و سلم فكان أولها الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . (86)ومنها تسليم الحجر عليه قبل بعثته ، (87)وتصف عائشة رضي الله عنها ذلك : " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء

---

85) . الطبري . تاريخ . 300/2، ا

86) . صحيح مسلم . حديث 160، ج1/ ص139.

87) . المصدر نفسه . حديث 2277، ج4/ص1782.

فكان يخلو بغار حراء يتحنث (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع (يرجع) إلى أهله و يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق و هو في غار حراء " . (88)

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من معنى الخلوة و الانعزال و التحنث الذي كان يمارسه رسول الله صلى الله عليه و سلم على أنه إنصراف كلي عن الناس ، وانسحاب من الحياة ، و اتخاذ الكهوف و الجبال موطنا و اعتبار ذلك فضيلة بحدّ ذاتها . فذلك مخالف لهديه صلى الله عليه و سلم و لما كان عليه عامة أصحابه . إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواء لإصلاح الحال ، و الدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم ، وإلا انقلب إلى داء ينبغي التوقي منه . وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة و الابتعاد عن الناس ، فمرد ذلك إلى حالة خاصة به ، وليس عمله حجة على الناس . (89)

7 . نزول الوحي ومطلع النور :

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها كيفية بدء الوحي و تقول :

" أول ما بديء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنَّث فيه ـــ وهو التعبد ـــ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : اقرأ : قال : (ما أنا بقارئ)، قال: (فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}[العلق:1: 3])، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: (زَمِّلُونى زملونى)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: (ما لي؟) فأخبرها الخبر، (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ـــ وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ـ فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأي، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعا، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجيّ هم؟) قال:نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفَتَر الوحي." (90)

و اشتد ذلك على رسول الله فكان يجوب شعاب مكة و يصعد جبالها علّه يقابل الملك الذي جاءه بالغار، ولم يلبث أن نزل الوحي عليه مرة أخرى ، يقول رسول الله : " بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري ، فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء و الأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى .

---

88) . صحيح البخاري . ج1/ص3.

89) . محمد سعيد رمضان البوطي . فقه السيرة النبوية . ط10، دمشق : دار الفكر ، 1991م ص94-95.

90) . صحيح البخاري . 30/1، 31، باب بدء الوحي ، صحيح مسلم . 197/2-204.

فنزلت: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" [المدثر: 1: 5]) وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمى الوحى بعد وتتابع. (91)

وكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذانا للرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بمنامه و هدوئه و سلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة و التشمير ، والإنذار و الإعذار ، فليحمل الرسالة ، وليوجه الناس ، وليأنس بالوحي ، وليقوَ على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية في عصرها المكي

1 . الدعوة السرية (الفردية):

يذهب كثير من كتاب السيرة إلى اعتبار السنوات الثلاث الأولى التي أعقبت نزول الوحي عليه صلى الله عليه و سلم فترة سرية بدأت الدعوة حياتها بها ، و على هذا فقد بدأ صلى الله عليه و سلم دعوته سرا .

ولا نجد تفصيلا لما حدث في هذه السنوات الثلاث في المصادر فهي لم تتوقف طويلا عند ذكر هذه المدة ، بل لم تفرد لها عنوانا مستقلا ، أو فصلا خاصا ، وإنما ورد الحديث عنها مجملا ضمن الحديث عن الدعوة . (92)

---

91) . المصدر نفسه . باب بدء الوحي . ج1/ح3، ص4.

92) . السيرة النبوية . تربية أمة وبناء دولة . ط1، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1992م ، ص17

فابن هشام ــ على سبيل المثال ــ يقول نقلا عن ابن إسحاق : ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه و سلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه و سلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين . فيما بلغني . من مبعثه ..". (93).

و انطلق رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أقرب الناس إليه و ألصقهم به يدعوهم إلى الله بسرية تامة يكوّن القاعدة العريضة المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة ، ويرسي في صدور هذه القاعدة الإيمان بالله وتوحيده المطلق ، ونبذ ما سواه من الأنداد و الشركاء و الشفعاء و الوسطاء ، وتذكير الناس بيوم لا ريب فيه يوم يرجعون فيه إلى الله ، ويزكي نفوسهم بعبادات فرضت عليهم ، ويجمعهم في كيان الجماعة المسلمة التي ترتبط برباط العقيدة ، ويحدد أهدافها القريبة و البعيدة ، ويجعل منهم شهبا تلمع في إهاب الليل الحالك تنير الدرب و تسطع في الأفق .

و هذا المنهج في السرية و التكتم الذي اتخذه رسول الله صلى الله عليه و سل ليس سببه الخوف على نفسه ، فالله عاصمه من الناس حتى يبلغ دينه للعالمين كاملا غير منقوص .. ولكنها الحكمة في حفظ الدعوة و المدعوين في المهد ، لتعلن الدعوة يوم تعلن وعشرات الأصوات تهتف بها و تؤيدها ، وتحمي صاحبها ، وتتحمل من أجله الأخطار ، وتبذل في سبيلها كل غال و نفيس .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدرك طبيعه مجتمعه، و القوي المتسلطه عليه، و يعلم أن هذا الزلزال التاريخي الهائل سيهز طواغيت المشركين ، و يثير كبرياءهم و عدوانهم. فليس بوسعه ان يجاهر بتلك الدعوه و يدعو الي تحطيم الوثنيه و الخرافه، ، و انقاذ المستضعفين و المحرومين بصورة علنيه. اذ كان سيواجه بكل وسائل الرفض و المقاومه و العدوان، فله فيمن سبقه من النبيين و المرسلين لعبره و موعظه، فقد جوبهت دعواتهم بالصدود ، و جندت قوي الطغيان كل امكاناتها لمحاربه رسالات الانبياء و دعوات الاصلاح التي تواجهها، فقتلوا النبيين و دعاه التوحيد، و عذبوهم و اخرجوهم من ديارهم، و سخروا منهم، و شنوا الحرب الدعائيه ضدهم.

وفي هذا تعليم للدعاة من بعده ، وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة و الأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير و العقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها . على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد و الاتكال على الله وحدة ، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير و الفعالية في تصوره و تفكيره . فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام .

والدعوة السرية الفردية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في أول الأمر وإن كانت مهمة لمرحلة الابتداء أو شرطا في النجاح والاستمرار لكنها لا تصلح أن تكون منهجا عاما إلى آخر المدى؛ إذ لا يمكن لدعوة عالمية يرجى لها الذيوع والانتشار في مشارق الأرض ومغاربها أن تعتمد هذا الأسلوب فقط إلى النهاية فإن في هذا إضعاف شديد للدعوة بل وأد لها، لذلك فما أن استجاب لهذه الدعوة نفر من الصحابة الأجلاء وخرجت الدعوة عن حيز الانحصار في شخص واحد بحيث يؤمن من وأدها

---

93) ـــ ابن هشام . السيرة النبوية . 262/1. وقد أغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالا تاما ، من هذه المصادر :(مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم) لعروة بن الزبير . جمع و تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، وقريبا منه فعل ابن حزم في كتابه . (جوامع السير) .

والقضاء عليها، وما أن وجد الرسول صلى الله عليه وسلم أعوانا على الدعوة حتى بادر إلى الأسلوب الآخر أسلوب الإعلان والبوح وإظهار الدعوة والجهر بها بين الناس ؛ إذ هذا الأسلوب هو الكفيل بنشر الدعوة وبلوغها للناس على نطاق واسع في زمن قليل جدا إذا قورن بزمن الأسلوب الأول، لكن ما أن جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة حتى عاداه المشركون وصدوا الناس عن دعوته ولم يكن هذا في الحقيقة نتيجة لأمر عارض كطريقة عرض الدعوة مثلا ولكن كانت هذا المعارضة نتيجة تناقض حقيقي بين دعوة الإسلام ودعوة الشرك فالإسلام قائم على عبادة الله وحده والعدل بين الناس، وأما الشرك فهو قائم على عبادة غير الله والعلو في الأرض بغير الحق، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما اطمأن على الدعوة ظل سائرا في طريقه لم يثنه عن ذلك ما ظهر من معارضة المشركين لأن هذا المعارضة من طبيعة التناقض التام بين دعوة الحق ودعوة الباطل، وعلى الدعاة إلى الله تعالى على بصيرة أن يستفيدوا من هذه السياسة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالى ، فعليهم أن يراعوا الظروف والأحوال في الدعوة مع الحذر من أمرين: أحدهما : التفريط في مضمون الدعوة أو عرضها ناقصة أو مبتورة أو خلطها بأمور مخالفة بزعم ترويجها أو التخلص من بعض القيود، وثانيهما: تعرض الدعوة للوأد أو القضاء عليها نتيجة للمغالبات التي تفوق طاقتهم، ومن البين أن الأسلوب أو الطريقة التي تتبع في ذلك قد تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر اعتمادا على أوضاع بيئة الدعوة وظروفها وإمكانات الدعاة وقوتهم ولا شك أن هناك أساليب كثيرة يمكن أن تتحقق بها الدعوة مع تفادي المحذورين المذكورين، ومن هذه الأساليب الأسلوب الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من باب السياسة الشرعية بوصف كونه إماما ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيا (94).

فكانت أول من دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم زوجته خديجة رضي الله عتها ، التي آمنت به ، وصدقته ، وهونت عليه ، وأعظمت له عمله ، ونفخت في طوايا نفسه الأمل في النصر ، وشجعته على المضي في تبليغ دعوته ، وما خرج من عندها إلا وهو أقوى عزيمة وأقوى شكيمة .فكانت سباقة إلى هذا الدين وأول من أمن في الأرض بمحمد عليه الصلاة و السلام .

كما آمن به ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ــ وكان صبيا يحيا في كفالة رسول الله صلى الله عليه و سلم ــ وكان عمره بين التسع و العشر سني، وكان أول من أسلم من الذكور من أسرته عليه الصلاة و السلام، وكان إذا حضرت الصلاة خرج به النبي صلى الله عليه وسلم إلى شعاب مكة مختفيين فيصليان ويعودان كذلك، وقد اطلع عليهما أبو طالب وهما يصليان مرة، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخى، ما هذا الدين الذي أراك تدين به. قال: أىْ عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم؛ بعثنى الله به رسولا إلى العباد، وأنت ياعم أحق من بذلت له النصيحة ودَعَوْته إلى الهدى، وأحق من أجابني وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا ابن أخي، إنى لا أستطيع أن افارق دين آبائي. ولكنه مع ذلك أقر ولده عليًّا على اتباع هذا الدين ووعد النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينصره ويدفع عنه السوء.

وقد أسلم بعد ذلك زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، الذي تبناه بعد أن أعتقه وزوجه أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت من السابقين إلى الإسلام.

---

94) . البوطي . فقه السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص107، محمد بن شاكر الشريف. سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله . موقع saaid.net.

ثم أسلم صديقه الحميم أبو بكر الصديق وكان أول من أسلم من الرجال الأحرار و الأشراف ، وهو من أخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل البعثة ،وفيه قال الرسول صلى الله عليه و سلم : " ما دعوت أحدا إلى الإسلام ، إلا كانت عنده كبوة ، وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عكم[95] حين دعوته ، ولا تردد فيه " [96].

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلًا مألفًا محببًا سهلًا ذا خلق ومعروف،وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموى، والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام. [97]

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومى، وعثمان بن مظعون الجُمَحِيّ وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوى، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمى، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى، وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامرأته فاطمة بنت المُجَلِّل وأخوه الخطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر ابن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشي، صُهَيْب بن سِنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فُهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن: أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة:إنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك– وجانب الصواب بعض كُتَّاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، عندما وصفوهم بأن معظمهم كان خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟.

---

95) . ما تلبث أن سارع

96) . أبو شهبة . السيرة النبوية . 284/1.

97) . ابن هشام . السيرة النبوية . 254/1.

وبقولهم: كان رصـــيد هذه الدعوة بعد ســـنوات ثلاث من بدايتها، أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء والمســـتضـــعفين والموالي والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي.

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشـير إليهم بالفقراء والمسـتضـعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب(98)، رضي الله عنهم.

ويقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية – لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة – ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية، يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون، إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنهم يدخلون في هذا الدين على اعتبارهم إخوة في ظل هذه العقيدة، عبادا لله، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها(99).

أسلمت تلك الثلة من السابقين الأولين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، يطلعهم على كل جديد من الوحي ويتلوا عليهم آيات الله عز وجل غضة طرية فتسكب في قلوبهم ، وتتسرب إلى أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدم وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائب الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

ويبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة - في هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية لكن بلغت أنباءها إلى قريش، بيد أنها لم تكترث بها .قال الشيخ محمد الغزالي" :وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين، الذي يتكلمون في الألوهية وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته."(100)

---

98) . صالح الشامي . من معين السيرة . ط2، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1992م ، ص40.

99) . المرجع نفسه .

100) . فقه السيرة . مرجع سابق . ص96.

وظلت الدعوة في طورها السري ثلاث سنين حتى نزل القرآن يأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بإعلان الدعوة إلى الإسلام و الجهر بها ، ومواجهة الباطل بحقائقها ، ومجابهة الوثنية في عقر دارها .

2 . الدعوة العلنية (الجهر بالدعوة):

ما لبث رسول الله صلى الله عليه و سلم أن بدأ بإعلان دعوته بعد أن تنزل قوله تعالى : " وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" ،(الشعراء: 214، 215). وقوله : " فا صدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " ، وذلك بعد استكمال بناء الجماعة المسلمة على أسس العقيدة والعبادة و الأخلاق .

وقد بدأ الرسول صلى الله عليه و سلم الدور الجديد للدعوة بأن صعد على جبل الصفا فنادى : ياصباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسيِّكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا تبًّا لك ، فأنزل الله عز وجل: (تبت يدا أبي لهبٍ وتب.ما أغنى عنه ماله وما كسبَ.سيصلى ناراً ذات لهب) [المسد :1-3] إلى آخرها.[101]

(وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية

(وأنذر عشيرتك الأقربين) (سورة الشعراء ، آية (214))دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشًا فاجتمعوا فَعَمَّ وخص فقال: "يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها بِبَلالها".[102]

فهاتان الروايتان مع روايات أخرى تبين لنا الموقف الصعب الذي كان يواجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه ، وقد أمره الله تعالى بدعوة عشيرته الأقربين ، وإن في الأمر بالبدء بدعوة الأقربين حكَمًا عظيمة ، منها أن بقاء الظلام المحيط بالنور من قرب يحول دون رؤية ذلك النور بوضوح فكان تبديده عاملاً مهمًا في انتشار ذلك النور ، فالبدء بدعوة الأقربين لأنهم محل حكم الناس على الداعية فإذا لم ينجح مع أقاربه كان لذلك أثر في الصد عن دعوته ، هذا إضافة إلى أن الدعوة برٌّ وإحسان وأحق الناس ببر الإنسان أقاربه .

ولقد قَدَّم النبي صلى الله عليه وسلم بمقدمة تلزمهم بالإذعان لو كانوا متجردين من الهوى والتقليد ، وذلك أنه صور نفسه نذيرًا لقومه ينذرهم من جيش قد اقترب منهم " أرأيتم لو حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم" فهذا يعني أنهم على استعداد لقبول إنذاره فيما يتعلق بدنياهم ، فلما اطمأن إلى ذلك ذكر لهم ماجمعهم من أجله ، وهو إنذارهم مما هو أجل خطرًا وأعظم عاقبة فقال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" يعني فكما صدقتموني في وقايتكم من مكروه الدنيا فصدقوني في وقايتكم من مكروه الآخرة الذي هو أشد وأبقى .

وفي هذا دلالة على أن من أساليب الدعوة التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشهاد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به على الأمر الجديد الذي يريد الداعية أن يدعو الناس إليه .

---

101) ـ صحيح البخاري .كتاب التفسير. رقم 4971 ، (الفتح 737/8)

102) . صحيح مسلم . كتاب الإيمان. رقم 204 ، ص 192 .

فأهل مكة المكرمة آنذاك كانوا يصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله من أخبار الدنيا، ولذلك لقبوه بالأمين فاعتمد هذه القناعة الثابتة عندهم لدعوتهم إلى الإيمان بالآخرة .

كما أن في هذا دلالة على أنه مما يجب أن يتزود به الداعية الرصـــيد الأخلاقي الكبير الذي يجبر خصـــومه على الاعتراف بفضله في هذا المجال ليتوصل بذلك إلى نشر دعوته السامية .

ولكنّ أفراد عشيرته صلى الله عليه وسلم هؤلاء صمتوا فلم يجيبوا ولم يستجيبوا لدعوته ، بل إن عمه أبا لهب لم يكتف بذلك ، وإنما ردّ عليه بهذا الرد القاسي السيئ .

ومع هذه المعاملة القاسية فإن النبي صلى الله عليه وسلم ظل صامدًا في دعوته غير عابئ بتحدي قومه ولابصدودهم .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "فإني لا أملك لكم من الله شيئًا " دلالة واضحة على أنه لاينجي الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لاينقذ من النار حتى أقرب أقاربه، فإن ذلك لايكون لغيره من البشر مهما بلغوا من الولاية والصلاح .

وقولـــه صلى الله عليه وسلم : " غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها" يعني إذا كنت لا أستطيع إنقاذكم من النار إلا بدخولكم في الإسلام فإن ذلك لايمنعني من أن أصلكم في الدنيا لقرابتكم مني .

وهذا الاستثناء له أثره الكبير في إبقاء حبل الوصل مع عشيرته ، لأنهم – وهم كفار – لايهتمون إلاَّ بالحياة الدنيا ، وقد أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لن يتغير شيء في حياته عما كان عليه من صلة رحمه ، فلعل بقاء هذا الخيط الذي يعرفونه ويقدرونه يكون سببًا في إيمانهم بما أنكروه من دعوته ولم يقدروه حق قدره .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبقى على صلته مع أقاربه وهم كفار ، فمن باب أولى لعموم المسلمين وخاصة للدعاة أن يبقوا على صلتهم بأقاربهم المسلمين وإن أنكروا منهم بعض السلوك أو جابهوهم بشيء من النفور والتحدي ، من أجل أن تكون هذه الصلة سببًا بعد ذلك في عودتهم إلى الالتزام بالدين واحترام دعاته المخلصين .[103]

قرر المشـــركون أن لا يألوا جهدا في محاربة الإســـلام وإيذاء الداخلين فيه و التعرض لهم بألوان النكال والإيلام ، ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباحت في الحرم الآمن منن دمائهم وأموالهم و أعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملا للضيم ، وتوقعا للويل .

صاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية و التحقير قصد بها تخذيل المسلمين و توهين قواهم المعنوية ، فرمي النبي صلى الله عليه و سلم وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتا لاذعة وصورا مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير . وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقي الرحى . [104]

---

103) . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي . وقفات مع السيرة /مواقف دعوية من السيرة النبوية . أنظر : موقع علماء الشريعة .

104) . محمد الغزالي . فقه السيرة . مرجع سابق . ص101.

ووجدت قريش أنها لا تستطيع أن تنال من محمد صلى الله عليه و سلم وصحابته بكبير أذى ما لم ترفع عنه الحصانة التي كان يتمتع بها بحماية عمه أبي طالب ، ومن ثم أجمعوا على أن يكلموه في شأن محمد ، فذهب إليه وفد من أشرافهم [105] .فقالوا : " يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه.[106]

ولما رأت قريش تصميم النبي صلى الله عليه و سلم على دعوته ، وعمه أبو طالب يشمله بحمايته و الذود عنه ، ذهبوا إليه مرة ثانية وأخبروه بأنهم لا يصبرون على شتم آبائهم ، والطعن في آلهتهم ، و خيروه بين أمرين : إما أن يمنع ابن أخيه عن دعوته ، وإما أن يعلنوها حربا عليه وعلى ابن أخيه حتى يهلك أحد الفريقين .

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءونى فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر ــ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ــ ما تركته)، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُك لشيء أبدًا وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجَمْعِهِم ** حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينًا

فاصدع بأمرك ما عليك غَضَاضَة ** وابْشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونًا [107]

رأت قريش أن تجرب وسيلة أخرى مع أبي طالب علها تفيد في رفع الحصانة عن محمد ، وتركه لهم ينهشون فيه وفي أتباعه . فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجملهم، فلك عقله[108] ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه،

---

105) . على رأسهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل . أنظر : الطبري . تاريخ 223/2، ابن الأثير . الكامل . 43/2.

106) . ابن هشام . السيرة النبوية . 265/1.

107) ـــ ابن هشام . السيرة النبوية .267/1، الطبري . تاريخ . 226/2-227، ابن الأثير. الكامل . 42/2-43، المباركفوري . الرحيق المختوم . مرجع سابق .115-114

108) . أي ديته إذا قتل .

هذا والله ما لا يكون أبدا»[109].

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم وبني المطلب إليه في حلف واحد على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلمهم ومشركهم على السواء، وأجار ابن أخيه محمدا إجارة مفتوحة لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية تسخر من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب فإنه أمعن في غيه وضلاله . [110]

لقد كان كسب النبي صلى الله عليه وسلم عمه في صف الدفاع عنه، نصرًا عظيمًا، وقد استفاد صلى الله عليه وسلم من العرف القبلي فتمتع بحماية العشـــيرة، ومنع من أي اعتداء يقع عليه، وأعطى حرية التحرك والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي صـــلى الله عليه وســـلم للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله. [111]

رأى المشركون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يزيدون يوما بعد يوم ، وأن المفاوضات غير المباشرة لم تؤت أكلها ، وأن البطش و التعذيب لم يصد المؤمنين عن دينهم ، فقرروا اللجوء إلى المفاوضات المباشرة ، ليس مع أبي طالب ولكن مع صاحب الدعوة نفسه محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أسلوب الإغراء بالمال و الجاه ، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة وكان رجلا قوي الحجة حسن العرض ،فقال يفاوضه بمعسول الكلام : " يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول صلى الله عليه وسلم : (قل يا أبا الوليد أسمع) .

قال : يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شـــرفًا ســـودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له ـــ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال: (فاسمع منى)، قال :أفعل، فقال : { بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه و استغفروه ، وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهو بالآخرة هم كافرون } [فصلت:1: 5]. ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد

---

109) . ابن كثير . البداية و النهاية . 48/3.

110) . أنظر : الصلابي . السيرة النبوية. مرجع سابق ، ص131.

111) . المرجع نفسه . ص133.

ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك) . قام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. (112)

لقد تخيّر رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآيات من الوحي المبارك ليعرّف محدثه حقيقة الرسالة و الرسول . إن محمدا عليه الصلاة و السلام يحمل كتابا من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خبال. وهو . قبل غيره . مكلف بتصديقه و العمل به و النزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه و يستغفروه فمحمد عليه الصلاة و السلام ألهج الناس بالاستغفار وألزمهم للاستقامة ، وما يطلب ملكا و لا مالا و لاجاها ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعفّ عنه وترفع أن يمد يده إليه ، وبسط العطاء مما سيق إليه من خيرات ، فأنفق واديا من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة غير مُعقِّب لذريته درهما .

إن عتبة ـ باسم قريش ـ يريد أن يترك محمد عليه الصلاة و السلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس . !...ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها !. ولذلك بعدما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائما من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هائجا من عاطفته : " فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " ، لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه ، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تده محمدا و شأنه!!(113).

3 . الاضطهاد و المقاطعة ...و التحدي :

بعد أن أخفق الإغراء و الإرهاب في تعويق الدعوة ، وصد نبيها عن الجهر بالبلاغ ، أدركت قريش أن ما تصبوا إليه بعيد المنال ، فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على رسول الله صلى الله عليه و سلم وعلى المؤمنين ، وتبذل آخر ما في وسعها للتنكيل بهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم .

فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسَلاَ جَزُور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [وهو عقبة بن أبي معيط] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم [أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا] ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: [اللهم عليك بقريش] ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: (اللهم عليك

---

112) ، ابن هشام . السيرة النبوية . 1/293-294.

113) . محمد الغزالي . فقه السيرة . مرجع سابق ، ص108-109.

بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط) ـــ وعد السابع فلم نحفظه . فوالذي نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى في القَلِيب، قليب بدر.(114)

وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه. وفيه نزل: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [سورة الهمزة:1] قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًا، ويؤذيهم. (115)

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًا أنبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل، وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم.(116)

وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفي ممن ينال من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى : { وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم:10: 13].

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة:31]، وكان يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى في الحرم، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا، وتوعده، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددنى؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى ناديًا. فأنزل الله {فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق:17، 18]. وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له:{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} [القيامة:34، 35] فقال عدو الله : أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها.(117)

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل : يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل : نعم، فقال : واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك

---

114) . صحيح البخاري . كتاب الوضوء . باب إذا ألقي على المصلي قذر أو جيفة . 37/1.

115) . ابن هشام . السيرة النبوية . 356/1-357.

116) . المصدر نفسه . 361/1-362.

117) . المباركفوري . الرحيق المختوم .مرجع سابق ، ص103-104.

يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا).[118]

وأما أصحابه رضوان الله عليهم فقد تجرع كل منهم ألوانا من العذاب حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي ، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئا . ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج عن العذاب الذي لاقاه كل منهم . ولكنا مكتفون ببعض الأمثلة في هذا المقام :

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ،إجتمعت عليه قريش في المسجد فداسوه بأقدامهم وضربوه بنعالهم ضربا شديدا على وجهه ،حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت).

وهذا بلال بن رباح رضي الله عنه الذي أصبح مضرب المثل في قوة الإيمان و الصبر على البلاء ، ولم يكن لبلال رضي الله عنه ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكي، يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي، أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة، أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكي تهز أركانه وتزلزل أقدامه،.

وبعد كل محنة منحة فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه مبشرًا إياه بالجنة، فقد قال صلى الله عليه وسلم لبلال: «... فإني سمعت خشف نعليك بين يدي في الجنة»[119].

وأما مقامه عند الصحابة فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا» يعني بلالاً[120].

أما عمار بن ياسر رضي الله عنه فكانت بنو مخزوم يخرجون به وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما بلغني صبرا آل ياسر موعدكم الجنة وقد روى البيهقي عن الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال ابشروا آل عمار وآل ياسر فان موعدكم الجنة فاما أمه فقتلوها فتأبى إلا الاسلام . [121]

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه كان أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال[122]، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعب الحيس[123] عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل، ولما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف

---

118) . رواه مسلم في صحيحه

(4) صحيح مسلم (1910/2) رقم الحديث 2458.

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد (232/3) ورجاله ثقات، ابن كثير . البداية و النهاية . 43/3.

121) . ابن كثير . البداية و النهاية . 49/3.

122) الطبقات الكبرى .116/3.

123) القعب: القدح الغليظ، والحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرًّا، فبصر به عثمان بن طلحة[124] يصلي، فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[125].

ويعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا من تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قويًّا لا يضعف ولا يتكاسل ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته فيسقط في جحيم النعيم الخادع.

لقد ودع ماضيه بكل ما فيه من راحة ولذة وهناءة، يوم دخل هذا الدين وبايع تلك البيعة، وكان لا بد له من المرور في درب المحنة لكي يصقل إيمانه ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئنا راضيا رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة[126]، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصرا بدينه وإيمانه، مطمئنا أعمق الاطمئنان، ثابتًا أقوى الثبات ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى. (127)

وممن أوذي في سبيل الله من الصحابة المستضعفين خباب بن الأرت رضى لله عنه الذي كان حدادا فلما علمت سيدته (أم أنمار) بإسلامه كانت تربطه في عمود من البيت وتشعل الكور وتحمى الحديد وتجرد خباب من ثيابه وتكويه بالنار مرة بعد أخرى حتى يغشي عليه من التعذيب فتنتظر حتى يفيق ثم تعاود التعذيب، وكان المشركون يجذبونه من شعره جذبا شديدا ، ويلون عنقه ليأً عنيفا ويلقونه على ظهره فوق حجارة محمية ثم يضعون على صدره صخرة فلا يستطيع القيام ، حتى أثرت هذه الحجارة الملتهبة في ظهره.(128)

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنما طال النساء أيضا قسط كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهن كسمية بنت خياط وفاطمة بنت الخطاب ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنهدية وابنتها، وأم عبيس، وحمامة أم بلال وغيرهن[129].

وجدت قريش أن المسلمين يزدادون يوما بعد يوم وسياسة التعذيب والاضطهاد لم تثنهم عن عقيدتهم، ..ومسلمي مكة يجاهرون بصلاتهم منذ أسلم عمر، ورسول الله ممتنع ببني هاشم لذا فكرت قريش في مواجهة شاملة تواجه بها محمداً وأصحابه ومن يناصرهم فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمد إليهم فيقتلوه، وكتبوا ذلك في صحيفة عرفت بـ"صحيفة المقاطعة" وعلقوها في جوف الكعبة ضمانا لتنفيذها وأخذوا العهود والمواثيق فيما بينهم للالتزام بتنفيذ ما جاء بالصحيفة[130].

---

124) . الذهبي . سير أ علام النبلاء . 3/10-12.

125) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص107.

127) . الصلابي . السيرة النبوية . مرجع سابق، ص156.

128) . محمد أحمد حسب الله . في السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص44.

129) انظر: سليمان السويكت . محنة المسلمين في العهد المكي ، مرجع سابق ، ص116، 117.

130) . محمد أحمد حسب الله. في السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص56.

وجاء في الصحيفة : (ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل). وفي رواية: ... على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم[131].

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

واشتد الحصار على المسلمين ومن ناصرهم من بني هاشم وبني المطلب ، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.[132]

وتحمل الرسول صلى الله عليه و سلم ومن معه عناء هذه المقاطعة بصبر وجلد وكانت الآيات القرآنية تنزل لتزيدهم ثباتاً وتطالبهم بالصبر وتحدي الحصار والقطيعة، ولم يثن ذلك الرسول عن نشر دعوته فكان يخرج في مواسم الحج والتجارة يدعو كل من وفد مكة إلى الإسلام، ولقد عاب بعض هؤلاء على قريش موقفها من بني هاشم وأعجبوا بثبات محمد وأصحابه فاستحسنوا الإسلام فاعتنقوه وكان هذا على عكس ما أرادت قريش من المقاطعة .

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، وكان الذي تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثا.

---

131) . ابن هشام . السيرة النبوية. 350/1،ابن القيم . زاد المعاد . 46/2 ، ، ابن الأثير . الكامل. 87/2.

132) . المباركفوري. الرحيق المختوم . مرجع سابق ، ص129.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضـــيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شـــاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سـراعًا قال: ويحك فماذا أصـنع؟ إنما أنا رجل واحد قال: قد وجدت لك ثانيًا: قال من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثًا: قال: قد فعلت، قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال أبغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشـــام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامسًـا، فذهب إلى زمعة بن الأسـود بن المطلب بن أسـد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال نعم، ثم سمى له القوم، فاتَّعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصـحيفة حتى ينقضـوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصـبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سـبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشـم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشـق هذه الصـحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسـجد: كذبت والله لا تشـق، فقال زمعة ابن الأسـود: أنت والله أكذب ما رضـينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صـدق زمعة لا نرضـى ما كُتبت فيها، ولا نقر به، فقال المطعم بن عدي: صـدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها، وقال هشـام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضـي بليل، تُشـوور فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصـحيفة ليشـقها، فوجد الأرضـة قد أكلتها إلا (باسـمك اللهم) (133)، وروى ابن إسـحاق أن الله عز وجل أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان وأخبر رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم بذلك عمه فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم بذلك، وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صـادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشـروها فإذا هي كما قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقال المطعم بن عدي وهشـام بن عمرو: نحن براء من هذه الصـحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالئ أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشِّعب(134).

4 . الهجرة إلى الحبشة :

أدرك رسول الله صـلى الله عليه و سلم بعد سنتين من الجهر بالدعوة ، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار ، وأن الزعامة الوثنية ماضـية في عنفها واضـطهادها وتعذيبها لهم ، مصـممة على اسـتخدام أي أسـلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد . ورأى أن يمنح المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ، ويستعيدون قواهم النفسية و الجسدية ، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهو أقدر وأصلب ..وعسى الله أن يحدث ــ خلال ذلك ــ أمرا كان مفعولا ، فأشـــار عليهم بالهجرة إلى الحبشـــة.(135) قائلا لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشـــة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد

---

133) . انظر: ابن كثير . السيرة النبوية . 43/2: 50، 67: 69.

134) . ابن إسحاق . السير والمغازي . ص156: 162.

135) . عماد الدين خليل . دراسة في السيرة . ط15، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1997م ، 65.

وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه . فخرج المسلمون إليها مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام . (136)

ويمكن أن نعتبر الهجرة إلى الحبشـــة مظهر من مظاهر الواقعية في رســـم خطوات العمل الدعوي والحفاظ على الأتباع ، وحماية المنجزات ، دون تجاهل الواقع أو التعالي عليه أو إسقاطه من الحساب ، فالنبي عليه الصلاة و السلام لم يتكل على كونه نبيا معصوما مؤيدا بالوحي ومسددا به ، بل كان شديد العناية بواقعه ، والأوضاع من حوله ، ويكيّف خطواته ومواقفه على ضوئها و التحرك بإيجابية نحو الأهداف العليا للرسالة الخاتمة . ولعل هذه الهجرة تخدم الدعوة من وجهين :

الوجه الأول : أنها إنقاذ للدعوة من أن تجهض في أيامها الأولى ، لأن هؤلاء المســـلمين إن بقوا في مكة وهو يتزايدون يوما بعد يوم فستشعر قريش بخطرهم عليها ، وليس ببعيد أن تقوم بحرب استئصال لهم باسم حماية الآلهة ، وسيؤيدها العرب كلهم في ذلك ، ولكنهم إذا هاجروا فسيبقى رسول الله محمد عليه الصلاو و السلام في مكة ضعيفا لا يؤبه له، في نظرهم وسترافق هذه النظرة الاستهانة به و بدعوته .

الوجه الثاني : انطلاق صوت الإسلام على أيدي دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لا يستهان به . وفي اختيار رسول الله محمد صلى الله عليه و سلم الحبشة بالذات لتكون مهجر أصحابه على أن رسول الله قد درس الموقف جيدا ، وعرف أحوال دول العالم آنذاك ، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة حاليا هي الحبشة لأن فيها ملِكا لا يظلم عنده أحد . وبذلك يظهر لنا أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان يفكر على مستوى دولة ، ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون دولة ، بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد . وإذا كانت كتب السيرة قد أطلقت على السنوات الثلاث الأولى من فجر الدعوة الإسلامية اسم " الدعوة السرية " فإن لنا أن نطلق على العهد المكي كله : دور التخطيط السري أو العمل السري لقيام الدولة الإسلامية .(137)

و لنا أن نتساءل ، لماذا اختار الرسول صلى الله عليه و سلم الحبشة دون غيرها من البلاد ؟ ، ما السر في الاختيار ؟.ان سر هذا الاختيار يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

فالهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً بالخطر، فان المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصباً لدين الآباء (الوثنيّة).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيّون أو اليهود، من الجزيرة العربية فلم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لان تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبيّ وطائفي، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرف ثالث في

---

136) . ابن هشام . السيرة النبوية . 31/1، ابن الأثير . الكامل . 59/3. ابن كثير . البداية و النهاية. 60/3.

137) ـــ محمد رواس قلعه جي . قراءة سياسية للسيرة النبوية .ص57، محمد حسن العيدروس. الدولة الإسلامية الأولى . ط1، القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2001م ، 97.

حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربيّ أساساً، فكيف يمكن الهجرة الى مناطقهم والتعايش معهم؟! .

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيرانيّ الملكيّ، ولم تكن السلطاتُ الإيرانية آنذاك لتسمح بإقامة المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة انه لما وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وآله إلى «خسرو برويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إليَّ هذا الذي يذكر أنه نبيٌّ، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني»!!.

وكذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنفوذ الايرانيّ كاليمن.

وأمّا «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافاً الى ان «اليمن» و«الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربُط قريشاً بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فإذا كان المسلمون يلجأون إليهما أُخرجوا منهما . بطلبٍ ن قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم [138].

وهناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة عن: لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة؟ منها:

أ- النجاشي العادل:

ب- النجاشي الصالح:

ج- الحبشة متجر قريش:

د- الحبشة البلد الآمن:

هـ- محبة الرسول صلى الله عليه وسلم **للحبشة ومعرفته بها:**

و ـ أن ملك الحبشة لا سلطان للقبائل العربية عليه ، ولذلك لما أرسلت قريش وفدها تطلب أن يرد إليها المهاجرين لم يفعل .

زـــ أن قرب المسافة بين مكة و الحبشة يمكن أن يكون أحد العوامل التي تدخل في هذا التقدير ، مما يدل على حسن تخطيط النبي صلى الله عليه و سلم وعظيم حكمته .

و إن المتأمل في أسماء الصحابة الذين هاجروا لا يجد فيهم أحدًا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار رضـــي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النســـب والمكانة في قريش، ويمثلون عددًا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنًا للقبيلة وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده، هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ولم يذكر هجرتهم للحبشة.

---

138 . السيرة المحمّدية مدرسة الأجيال . جعفر الهادي)

5 . عام الحزن :

اجتمعت الأحزان على رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو لم يكد يخرج من الشعب حتى توفيت أم المؤمنين السيدة : خديجة بنت خويلد الأسدية ، زوج رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات ، فحزن عليها ونزل في حفرتها ودفنها بيده الشريفة في منطقة الحجون ، وبفقد خديجة رضي الله عنها ، فقد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم الزوجة الوفية المخلصة ، التي آمنت به ورعته وواسته ووقفت إلى جانبه في محنته تخفف عنه بعض ما يعانيه من أذى المشركين ، ولهذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم يثني عليها كثيرا ويذكرها بالخير ، فهي رضي الله عنها أم أولاده ك زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء والقاسم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر ، رضي الله عنهم أجمعين ولم يأته ولد من غيرها ، سوى إبراهيم من مارية القبطية . ولهذا كله ووفاء منه ، صلى الله عليه وآله وسلم بشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب {5} . ثم وبعد أيام معدودة من وفاة خديجة رضي الله عنها ، توفي عمه أبو طالب بن عبد المطلب ، الذي كان كريما في مروءة وشرف ، ونخوة وحمية ، وعطف وحنان ، ورأفة وشفقة ، كل هذه الصفات الحميدة ، جعلت أباه عبد المطلب يوصيه بكفالة رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم من بعده وكان أبو طالب يحب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يكاد يفارقه أبدا في حله وترحاله ، وبقي في بيته حتى تزوج من خديجة رضي الله عنها ، ووقف أبو طالب بجانب ابن أخيه عندما بعث ، يمنعه من أذى المشركين ويحميه من اعتداءاتهم ، وكان لا يكذب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به ، ويصدقه فيما يقول ، ولكنه لم ينطق بالشهادتين ، رغم إلحاح رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عليه للنطق بهما عندما اشتد به المرض ، وكان بعض المشركين أثناء ذلك يقولون له : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فيجيبهم قائلاك على ملة عبد المطلب ؟ لكن أبا طالب أوصى قومه قبل وفاته قائلا: [لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره ، فاتبعوه وصدقوه ترشدوا] فقالوا له : يا أبا طالب إنك تعلم مقامك عندنا وتعلم ما بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه أن يكف عنا فنكف عنه ، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه . فأرسل إليهم وقال : يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " . فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه " فقالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب ، ثم إن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم كرر دعوة عمه إلى الإيمان . فقال أبو طالب : يا ابن أخي لو لم تظن قريش أني قلتها جزعا من الموت لقلتها حتى أسرك . وحزن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، حزنا عميقا على عمه أبي طالب ، فقد فقد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم المدافع عنه ، والذي أرخص نفسه في سبيل منع رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم من أذى المشركين وتكذيبهم له ، ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم العام الذي توفيت فيه خديجة و أبو طالب "عام الحزن" ، وانتهز المشركون هذه الفرصة السانحة ، لينالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليزدادوا من آذاهم له حتى نثروا التراب على رأسه عندما أراد أن يدخل بيته ، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي . فقال لها رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم : " لا تبكي يا بنية إن الله مانع أباك " . وأضاف قائلا :ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب (139).

---

139) . ابن هشام . السيرة النبوية . ص99، الطبري . تاريخ. 2/343-344، ابن سعد . الطبقات 1/1/141، ابن الأثير . الكامل . 2/90-91.

وقد قضـــت حكمة الله تعالى أن يفقد الرســـول عمه أبا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان في الظاهر حاميا له ومؤنسا ، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولاهما : أن الحماية و العناية و النصر ، إنما يأتي كل ذلك من الله عز وجل . ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين و الأعداء ، فسواء كان ثمة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصـوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصـر و التوفيق .

ثانيتها : ليس معنى العصـمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاء أو عذابا أو اضـطهادا ، وإنما معنى العصـمة التي تعهد بها الله عز و جل بقوله : " و الله يعصـمك من الناس " (المائدة 67/7/5)، العصـمة من القتل ومن أي صـد أو عدوان من شـأنه إيقاف الدعوة الإسلامية ، فقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء من ذلك قدرا غير يسير ، وذلك لا ينافي العصمة التي وعد بها أنبياءه و رسله...

فلو أن النبي صلى الله عليه و سلم نجح في دعوته بدون أي مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه و المسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح ، ولاستثقلوا المصائب و المحن التي قد يجدونها في طريقهم إلى الدعوة الإسلامية .

أما ، و الحالة هذه ، فإن مما يخفف المحنة و العذاب على المسلمين شعورهم أنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله صلى الله عليه و سلم وأنهم يسيرون في الطريق ذاتها التي أوذي فيها رسول الله [140].

6 . في الطائف :

أدرك الرسول صلى الله عليه و سلم أن القيادة الوثنية في مكة مصرة على الوقوف بوجه دعوته، ماضية في إلحاق أذاها به ، واضطهاد أتباعه وفتنتهم عن دينهم ، فرأى أن يتحرك ضمن إطار سنن الله الاجتماعية ـــ مع كونه مؤيدا بالوحي و مشمولا بالرعاية الإلهية . لكونه بلا ريب القدوة النموذجية للمسلمين في كل العصور في علاقتهم بالكون و الحياة و الناس .

فقام عليه الصلاة و السلام بجملة من التدابير اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهجية المحكمة ، التي شكّل البحث عن سند اجتماعي وموقع جديد للانطلاق في بناء الدولة محورها الرئيس .

فالدعوة بدون سند اجتماعي قوي لا يُنتظر منها إنجاز عملية التغيير المنشود ، كما لاحظ ذلك ابن خلدون حين نصّ ـــ في إطار سنة التدافع . على أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم [141].

وقع اختياره عليه الصلاة و السلام على الطائف حيث تقطن كبرى القبائل العبية بعد قريش ، فغادر مكة في شوال من السنة العاشرة للبعثة ، يصحبه زيد بن حارثة ، فلماذا اختار الطائف ؟ .

1 . لأن الطائف تقع على مسافة 120كم وهي قريبة من مكة ،

---

140) . البوطي . فقه السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ص147-148.

141) . أنظر : ابن خلدون . المقدمة . بيروت : دار الفكر ، 2002م ، ص160، أمحزون . منهج النبي في الدعوة ..مرجع سابق ، ص 123.

2 ـــ الطائف بلد زراعي ، كثير الخيرات ، مشهورة بخصبها وجودة محصولاتها ، ولو قدر الله له أن يحتضن الدعوة الإسلامية ويأوي أهلها لوجد رسول الله و أصحابه بحبوحة من العيش تساعدهم على نشر الدعوة ، وإقامة الدولة التي ستحتاج إلى كثير من المال لتسليح جندها وإقامة مرافقها (142).

3 . الطائف تمثل العمق الإستراتيجي لملأ قريش،

4 . الطائف بلد في أعالي الجبال ، و الجبال تؤمن الحماية لمن يأوي إليها بما فيها من التضاريس ،

7 . بشائر النصر من يثرب :

استطاعت التعاليم الإسلامية أن تحقق بصمود أتباعها أمام ملأ قريش مبدأ جديدا هاما ن وهو أن واجب الفرد لم يعد يقتصر على قبيلته ، وإنما صار يشمل المؤمنين بالدعوة الإسلامية على اختلاف القبلية التي ينتمون إليها ، وبدأ هذا المفهوم الجديد يهز الحياة القبلية كلها برغم صلف قريش وضراوة الملأ فيها للدفاع عن بقاء تلك الحياة القبلية. ولم يعد أمام الرسول الكريم من سبيل سوى نقل هذا المفهوم و الدعوة التي استند إليها هذا المفهوم الجديد إلى ميدان جديد ، أشبه بالشتل من النبات الذي لا بد من غرسه في أرض جديدة تكون أكثر ملاءمة لنموه وازدهاره . واتضح للرسول الكريم أن بيئة مكة قد أصبحت بعناد ملأ قريش معقلا للنظم القبلية وعاصمة للعصبية الجاهلية ، ولا بد من البحث عن تربة جديدة غير تربة قريش(143).

عن جابر بن عبدالله قال: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول ألا رجل يعرض على قومه فان قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي. "(144).

" وذكر قاسم بن ثابت من حديث عبد الله ابن عباس عن علي بن أبي طالب في خروجهما هو وأبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال علي: وكان أبو بكر في كل خير مقدماً فقال ممن القوم فقالوا من شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمر وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمر قد غلبهم جمالاً ولساناً وكانت له غديرتان وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضي الله عنه فقال له أبو بكر رضي الله عنه كيف العدد فيكم فقال مفروق أنا لنزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة فقال أبو بكر كيف المنعة فيكم فقال مفروق علينا الجهد ولكل قوم جد فقال أبو بكر فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم فقال مفروق إنا

---

142) . محمد حسن العيدروس . الدولة الإسلامية الأولى . مرجع سابق ، ص113.

143) . ابراهيم أحمد العدوي . تاريخ العالم الإسلامي . عصر البناء و الانطلاق . مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ، 1994م 61/1. .

144) ـــــ ابن سيد الناس . عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . مؤسسة عز الدين ط 1406هـ، ج 201/1-204

لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى وأنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح والنصر من عند الله يديلنا ويديل علينا أخرى لعلك أخو قريش فقال أبو بكر أوقد بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا فقال مفروق قد بلغنا أنه يذكر ذلك فإلام تدعو يا أخا قريش فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله وأن تؤوني وتنصروني فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد فقال مفروق وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " فقال مفروق وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون " فقال مفروق دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وكأنه أراد أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال هذا هانئ ابن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا فقال هانئ قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر وإنا إنما نزلنا بين صريي اليمامة والسمامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذان الصريان فقال أنهار كسرى ومياه العرب فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما يكرهه الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسأتم في الرد إذ فصحتم في الصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من حاط من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نسائهم أتسبحون الله وتقدسونه فقال النعمان بن شريك اللهم لك ذا فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا " ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقال يا أبا بكر يا أبا حسن أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتجاوزون فيما بينهم قال ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا صدقاً صبراً ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك كله يدعو إلى دين الله ويأمر به كل من لقيه ورآه من العرب إلى أن قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فلم يبعد ولم يجب ثم انصرف إلى يثرب فقتل في بعض حروبهم. (145).

---

145) . ابن سيد الناس . عيون الأثر . 1/201-204.

واهتزت قبيلة الخزرج للأنباء التي ذكرها رجال الأوس عن النبي الجديد في مكة ورأوا أن أحوالهم في يثرب تدفعهم إلى معرفة دهوته ، ذلك أن سكان يثرب من الأوس و الخزرج قد سمعوا من جيرانهم اليهود بقرب ظهور نبي ، وأن اليهود يستغلون هذه النبوة لفرض سيادتهم على يثرب كلها ، ولذا حين خرج إلى سوق عكاظ نفر من بني عبد الأشهل من الخزرج والتقوا بالنبي كانوا أسبق أهل يثرب إلى قبول الدعوة الإسلامية ، حتى لا ينال الأوس أو اليهود قصب السبق عليهم في هذا السبيل . وتجلت في مناقشة هذا الوفد الخزرجي مع رسول الله صلى الله عليه و سلم مدى استجابة قبيلة الخزرج لمبدأ اتساع واجب الفرد إلى خارج نطاق القبيلة على نحو ما تدعو إليه تعاليم الإسلام ، وصلاحية هذا المبدأ لأن يكون طليعة لتنظيم سياسي للمسلمين في يثرب يعتز به الرسول شخصيا[146] . فقالوا للرسول : " إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك " [147].

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب» [148].

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء، وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فكان يسمى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم.

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة

---

146) . العدوي . تاريخ العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، 62/1.

147) . ابن هشام . السيرة النبوية. 428/1.

148) . صحيح مسلم . 41- 1709. .

الأمينة لانطلاق الدعوة(149).

فى موسم الحج التالى وفد مع حجاج يثرب ثلاثة و سبعون رجلا، و امرأتان من المسلمين و معهم مصعب ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم و سر الرسول بأنتشار الإسلام بين أهل يثرب ووجد فيهم المنعة و النصرة و الحماية، و وجد المسلمون فى يثرب الملجأ والملاذ والمأوى فتاقت نفوسهم وهفت اليها أفئدتهم و تمنوا ساعة الخلاص .

تواعد الرسول و مسلمو يثرب اللقاء فى العقبة فى ليلة الثاني عشر من ذي الحجة على أن يكون سرا حتى لا تعلم قريش أو مشركو يثرب به فيفسدوه، ولما حان الموعد بدأ المسلمون يتسللون تسلل القطا–وهو طائر معروف بالخفة و الحذر–إلى مكان الاجتماع و خرج إليهم الرسول و معه عمه العباس وكان لا يزال مشركا و لكنه أراد أن يتثبت لابن أخيه من أهل يثرب، و كان أول من تكلم فقال : يا معشر الخزرج، ان محمدا منا حيث علمتم، و قد منعناه من قومنا ممن على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه و منعه فى بلده، و أنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم و اللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه، و ما منعوه ممن خالفه، فأنتم و ما تحملتم من ذلك، و إن ترون أنكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزّ و منعه من قومه و بلده، فقال الخزرج للعباس: قد سمعنا ما قلت ، تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك و لربك ما أحببت، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم و أبنائكم، فأخذ البراء ابن معرور يده، و قال:نعم و الذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا– كناية عن أنفسهم ونسائهم–فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، و أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وأراد الأنصار أن يستوثقوا لأنفسهم أيضا من الرسول فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا و إنا قاطعوها(يريد اليهود)فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال:"الدم الدم والهدم الهدم"،يعنى أنا منكم و أنتم منى أحارب من حاربتم و أسالم من سالمتم

وقال العباس بن عبادة الأنصارى، مؤكدا البيعة في أعناق الأنصار:يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل، قالوا:نعم، قال:إنكم تبايعونه على حرب الأحمر و الأسود من الناس، فأن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة،وأشرافكم قتلا، أسلمتموه فمن الآن، فهو و الله خزي في الدنيا و الآخرة إن فعلتم، و إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكه الأموال و قتل الأشراف فخذوه، فهو و الله خير في الدنيا و الآخرة فأجاب الأنصار : نأخذه على مصيبة الأموال و قتل الأشراف، أبسط يدك يا رسول الله لنبايعك فبسط يده فبايعوه .

وطلب الرسول أن يختاروا من بينهم إثنا عشر نقيبا فاختاروا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس،و قال الرسول لهم:أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم فأجابوه.

---

149) . الصلابي . السيرة النبوية . مرجع سابق ، ص239-240.

وفى الصـــباح علمت قريش بأمر البيعة و أن أهل يثرب قد بايعوا محمدا ليخرج إليهم ، و يمنعوه مما يمنعون منه نســاءهم و أولادهم، فوقع في أيديهم و طاش صـــوابهم و خرجوا مســرعين إلى منازل أهل يثرب يســألونهم:أنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صــاحبنا هذا تســتخرجوه من بين أظهرنا و تبايعوه على حربنا، وإنا و الله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشــب الحرب بيننا و بينهم منكم، فسكت المسلمون و قام أهل يثرب يحلفون لهم ما كان من هذا من شـئ، و ما علمناه، وعاد أهل يثرب إلى بلدهم، و لكن قريشا تيقنت خبر البيعة فخرجوا عليهم يظفرون بأهل يثرب و لكنهم لم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة ، فكتفوه و عادوا به إلى مكة يضــربونه و يجرونه من شــعره و لم يخلصــه من بين أيديهم إلا مطعم بن عدى الذي أجاره فعاد إلى يثرب (150).

وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية و تقرر فيها أن يهاجر الرسول و المسلمون إلى يثرب على أن يقوم الأنصار بحمايتهم و نصرتهم و أصبح أمر الهجرة محققا و لكنها مسألة وقت فقط .

المحاضرة رقم 6

الهجرة النبوية إلى المدينة دواعيها و نتائجها

1. أسباب الهجرة :

شاءت حكمة الله عز و جل أن يسبق الأوس و الخزرج إلى اعتناق الإسلام ويستضيئوا بنوره بعد أن أبت قريش إلا البقاء في ظلمات الجهل مصرة على عنادها ومقاومتها للدعوة والداعية .و لكن بيعتي المعقبة الأولى و الثانية كانتا نقطتا تحول في مسيرة الإسلام وإيذانا وتمهيدا للهجرة النبوية ومقدمة لها بتمهيد كل الأسباب لإنجاحها و يمكن تلخيص دواعي الهجرة فيما يلي :

1ــ اضطهاد قريشا للمسلمين عامة والمستضعفين خاصة، و شددت حصارها على النبي –صلى الله عليه وسلم- فأصبحوا بين مفتون في دينه ،ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد ، وقد مرت الإشــارة إلى كل هذا فيما ســبق فكان لابد من موطن تأمن فيه الدعوة والداعية وأنصــارهما فلم تكن أحســن من المدينة التي اختارها الله دار هجرة رسوله وحددها في بشارات الأنبياء من قبل، فقد قال آخر الأساقفة الذي عاش معه سلمان الفارسي ــ رضي الله عنه ــ ***« قد أظل زمان نبي ،وهو مبعوث بدين إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يخرج بأرض العرب ، مهاجَره إلى أرض بين حَرَّتين ،بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ،ولا يأكل الصدقة ،بين كتفيه خاتم النبوة*** *» /ابن هشام /السيرة / 1 /218*

---

150) ـ راجع في بيعة العقبة الثانية : ابن هشام . السيرة النبوية . 2/31-58، الطبري . تاريخ . 1/562. ابن الأثير . الكامل . 2/68، ابن كثير . البداية والنهاية .3/121، ابن القيم . زاد المعاد . 3/34-42.

2 ـ و السبب الثاني: هو مبايعة الأنصار للنبي –صلى الله عليه و سلم– بقيام تحالف بينه و بينهم على النصرة ، بعد أن آمنوا بالإسلام لما يريد الله لهم من الكرامة بالسعادة والعز في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة.

أحست قريشا بالخطر و تجسد أمامها ويظهر هذا في قولهم لأهل المدينة بعد أن علموا بالبيعة ولم يتأكدوا منها : «**يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا و تبايعونه على حربنا ،وإنه و الله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم** » . (ابن هشام /السيرة/1/448)

شددت حصارها على النبي ρ خاصة بعد أن أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فكان ذلك مما زاد في حقدها و مضاعفة رقابتها على النبي ρ قال ابن سعد : «**فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كَلِبت قريش و حُرِبوا –سلبوا أموالهم– وأغتاضوا على من خرج من فتيانهم**»/الطبقات الكبرى/م1/القسم1/152

هما سببان رئيسيان و هناك أسباب وعوامل أخرى تندرج ضمنهما.

2– **هجرة المسلمين إلى المدينة:** بعد أن أصبح للنبي ρأنصارا من أهل المدينة أذن لأصحابه بالهجرة بعد أن أذن الله له بذلك فقال : «**قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها** » /ابن سعد:طبقات/م1/ق1/152، صحيح البخاري/ج4/ص:71باب هجرة النبي ρ و حثهم على ذلك، فقال أيضا : «**إن الله –عز و جل– قد جعل لكم إخوانا و دارا تأمنون بها** » الطبقات/م1/ق1/152

فخرجوا سرا أفرادا و جماعات و بقي النبي ρ بمكة ينتظر إذن الله له بذلك ، و كان أول من هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بسنة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد فمنع بنو مخزوم زوجته أم سلمة من الهجرة معه لأنها منهم ، وأخذ قوم عبد الله ابنها منها ففرقوا بينها وبين زوجها وابنها فاشتد بكاؤها حتى رَقَّ لحالها أحد أقاربها فحث قومه على السماح لها باللحاق بزوجها ففعلوا، ورد إليها ابنها أيضا فلحقت بزوجها .

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجته أم عبد الله –ليلى– ثم هاجر عمر بن الخطاب علانية في وضح النهار غير خائف من قريش ، و هاجر معه عشرين رجلا.

ثم هاجر صهيب الرومي فمنعته قريش أن يأخذ معه ماله، فقال لهم: «**أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم** » فدلهم على ماله وتركوه يهاجر، فقال النبي ρله لما علم بذلك : «**ربح صهيب،ربح صهيب**» ،و أنزل الله في حقه : **(و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ،و الله رؤوف بالعباد)** /البقرة/207.

نزل المسلمون على الأنصار فآووهم و نصروهم ووا سوهم .

خلت العديد من الدور بمكة من أهلها فعدت عليها قريشا فاستولت عليها، وعلى أموالهم،واتهم أبو جهل النبي ρ بأنه وراء ما حدث، إذ قال لعتبة لما شاهد خلو الديار من اهلها : «**هذا من عمل ابن أخي هذا– يشير إلى العباس– فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا** » /ابن هشام/السيرة/1/471).

ذلك هو منطق أبو جهل المعوج يفتن الناس في دينهم فإذا ما خرجوا يبحثون عن الأمن اتهمهم بما اتهمهم به . من الذي كان يَضرِب ولا يُضرب ويَقتل ولا يُقتل؟! أو ليس المشركين وإمامهم إلى النار فرعون هذه الأمة أبو جهل؟!.

لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ρو أبو بكر و علي بن أبي طالب أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج / ابن سعد /م1/ق1/152-153

3-هجرة النبي ρ و أبو بكر الصديق: إن نجاح الإسلام في تأسيس موطن له في المدينة علامة بارزة على أفول نجم قريش التي تحكمت في الحرم ، فلم تسلم ، ولم تترك أبناءها يسلمون بل وقفت حتى في وجه الزائرين تصدهم عن اتباع الإسلام و الاهتداء بهديه. أحست قريش بالخطر بعد أن أصبح للنبي شيعة و أصحاب بالمدينة وهي طريق تجارتهم إلى الشام ، والنبي -صلى الله عليه و سلم- لا حق بهم اليوم أو غدا لامحالة.

ان النبي ρ ينتظر أمر ربه بأن يأذن له بالهجرة وكذلك الأنبياء قبله لا يقبلون على أمر ذي بال إلا بإذن من الله ، و كانت من المبشرات الدالة على قرب هجرته إذنهρ لأصحابه بعد الرؤيا التي رآها والتي مرت الإشارة إليها وما أوحى الله به إليه وأمره أن يدعوا به:**(و قل رب أدخلني مدخل صدق ،و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)** / الاسراء/80

وكان أبو بكر يهم بالهجرة و النبيρ يؤجله و يقول له : «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا** »،

فكان أبو بكر هو الصاحب .

أ- اجتماع قريش في دار الندوة و إجماعهم على قتل النبي -صلى الله عليه و سلم- ضلت قريش تقاوم الإسلام بمختلف الوسائل لمدة ثلاثة عشر سنة ، إلا أن هذه المقاومة باءت بالفشل الذريع ، وضاقت بالنبيρ درعا وبدعوته، خاصة بعد أن أصبح له شيعة وأصحابا بالمدينة مما دفعهم في أواخر شهر صفر من السنة الثالثة عشر للبعثة أن يجتمع رجال قريش في دار الندوة لتحديد مواقفهم تجاه الدعوة والداعية ،تم الاجتماع بحضور قادة الشرك ودار النقاش وطرحت في هذا الاجتماع التاريخي ثلاث مقترحات هي : نفي النبيρ [إخراجه] فأبعد هذا الرأي ، وإما حبسه فلا يترك يتصل بغيره فأبعد هذا الاقتراح أيضا ، و لكن أبا جهل تقدم بالرأي الثالث هو قتل النبي ρ إذ اقترح جمع أربعين شابا من مختلف القبائل فيضربونه ضربة واحدة فيتفرق دمه فيهم فيعجز بنو هاشم عن الأخذ بالثأر فيقبلون بالدية ، فقبلوا هذا الرأي وافترقوا عليه وقد أشار القرآن إلى هذه المقترحات الثلاثة، فقال عز و جل : **(و إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين)** الأنفال /30

كانوا يمكرون وكان الله يد بر لنبيه أمره بالحفاظ عليه ليتم به النعمة و يكمل على يديه أمر الدين .ذلك آخر مواقفهم ، فالكفر لا يملك إلا قوة القهر والقتل إذا عدم الحجة.

-ب- تطويق منزل النبي -صلى الله عليه و سلم- لتنفيذ المؤامرة: أوحى الله إلى نبيه أن لا ينام في فراشه هذه الليلة فلما مضى منتصف الليل جاء المجرمون لتنفيذ ما عزموا عليه :فكانوا كمثل رجل أخرق بليد ينفخ على الشمس ليطفئ نورها،و لكن هيهات، فالله متم نوره و لو كره الكافرون .

أخذ الزهو والسرور أبو جهل و كأنه متأكد من نجاح مسعاه، إذ قال مخاطبا العصابة المحيطة بالبيت في استهزاء وسخرية: **«إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأرض و إن لم تفعلوا كان له فيكم دبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ،ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها »** /السيرة/1/483 .

ما كان الله عز وجل ليفرط في نبيه ويَكله إلى هؤلاء السفهاء لينفذوا فيه جريمتهم، ألم يقل له-جل جلاله- : **(فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)** /الطور/46 . ألم يأخذ الحق تبارك و تعالى على نفسه عهدا أن ينصر رُسُله و اتباع الرسل قال: **(إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)** غافر/51 ، و قد أكد ما وعد في قوله Y **(إلا تنصروه فقد نصره الله)** / التوبة/40

-ج-**فشل المؤامرة واختفاؤه و صاحبه في غار ثور**: كان النبي ρ قد أخبر أبو بكر الصديق بإذن الله له بالهجرة فأعد للأمور عدتها، فلم يكن يعلم بها إلا الصديق وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما ..

خرج النبي ρ على المحاصرين ودَرَّ على رؤوسهم ا لتراب وهو يتلوا قوله تعالى: **(يس و القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ... إلى قوله....فأ غشيناهم فهم لا يبصرون)** / يس/1-8

ترك علي بن أبي طالب لينام في فراشه وأخبره أنه لن يخلص إليه شيئا يكرهه، ليبقى من بعده ليرد الودائع إلى أصحابها و الذين كانوا قد أعطوها للنبي -صلى الله عليه و سلم- يحفظها لهم ابن هشام/1/485.

خرج النبي و اتجه إلى منزل الصديق ومن منزله اتجها جنوبا إلى غار ثور فاختفيا فيه ثلاثة أيام ، وجاءت قريش تتبع الأثر حتى انتهت إلى فم الغار الذي نسجت العنكبوت عليه نسيجها فضرب الله على أبصارهم فلم يروهما ، وحفظ الله نبيه و صاحبه من أن يصابا بسوء وكان النبي ρ غير خائف في حين كان الصديق على العكس من ذلك. وقال للنبي ρ لو نظر أحدهم إلى أسفل قدميه لرآنا فأجابه النبي -صلى الله عليه و سلم- «ما ظنك باثنين الله ثالثهما». تلك هي منتهى ثقته ρ في ربه بأنه لن يضيعه فهو معه بالحماية والتأييد والنصرة ،من نصر إلى نصر ، وأعداءه من خذلان إلى خذلان، ومن فشل إلى فشل وقد سجل المولى Y الحوار السابق في كتابه الكريم قال: **(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها و جعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا و الله عزيز حكيم)** /التوبة/40

تلك هي الحقيقة إن لله جنودا يهزم بها الباطل و ينصر بها الحق، و لم تكن هذه النصرة إلا بعد الأخذ بالأسباب :إعداد راحلتين للسفر، وكتمان ليلة الهجرة واكتراء دليل ماهر بمعرفة الطرق هو عبد الله بن أريقط، و تكليف عبد بن أبي بكر الصديق بتسمُّع أخبار قريش نهارا ثم يأتيهما مساء فيخبرهما بما تقول ، و كان عامر بن فهيرة يأتي في كل مساء عند الغار بغنم لأبي بكر فيحلبان و يشربان كما ساهمت أسماء أيضا بتزويدهما بالزاد.

-د-**النبي ρ وصاحبه في طريقهما إلى المدينة وسراقة يطاردهما أول النهار و يرجع آخره يدافع عنهما** : كانت قريش قد جعلت مائة ناقة مكافأة لمن جاء بالنبي ρحيا أو ميتا و لكن بعد ثلاثة أيام قضوها في الغار وكفت قريش عن بحثها خرجا في

صـــبيحة اليوم الرابع و معهما الدليل فأخذ بهم طريق الســـاحل على طريق غير مألوف وعر المســـالك، كان الركب يتكون من أربعة أفراد النبي ρو صاحبه وعامر بن فهيرة والدليل عبد الله بن أُريقط .

كان سـراقة في مجلس نادي قومه بمكة إذ أقبل رجل وأخبرهم بأنه شـاهد أَسْـوِدة على السـاحل ولا أظنهم إلا محمد و أصـــحابه ،فعرف ســراقة أنهم هم ، فقال: هم فلان وفلان على أفراد ليظلل قومه و يلحق بهم ليفوز بالجائزة ، ثم انصـــرف إلى منزله فأعد عدته و ركب فرسه ولحق بهم فلما اقترب منهم ساخت ساقا الفرس الأماميتين في الرمل ، وكان الرسول يقرأ القرآن ولا يلتفت في حين كان الصـــديق يكثر من الالتفات . أخرجت الفرس قدميها وواصـــل العَدْو، فحدث له مثل ما حدث في المرة الأولى ، فعرف أن الله مانع رسوله وأن أمره سيظهر فناداهم فعرَّفهم بنفسه وأمنهم ، وطلب من رسول الله ρ أن يكتب له كتابا أمان فكتب له ذلك بيد أبي بكر ثم عرض عليهما الزاد و المتاع فأبى النبي ρ أن يأخذ منه شيئا ، ثم رجع يصرف أنظار الناس عنهما انطلق راغبا في قتل النبي ρ ليفوز بالجائزة صباحا وعاد مساء يحرسه وصاحبه. / ابن هشام/485/1 و ما بعدها، ابن كثير البداية/177/3/و ما بعدها)

سبحان الله مقلب القلوب كيف يشاء من عدواة و مطاردة إلى دفاع ونصرة.

-د - النبي -صلى الله عليه و سلم- وصاحبه في طريقهما إلى المدينة:استمر الركب المبارك سائرا في الصحراء في شدة من الحر حتى انتهت الرحلة بالوصول إلى قباء حيث المنعة والنصرة و حيث إخوة الإيمان من المهاجرين والأنصار، وكانت قد ترامت الأنباء إليهم بخروجه من مكة فكانوا كلما صلوا الصبح خرجوا ينتظرون قدومه حتى إذا علت الشمس واشتد الحر رجعوا إلى بيوتهم ،وفي اليوم الثامن من ربيع الأول ولما عادوا إلى بيوتهم رآه أحد اليهود فصـــاح « يابني قيلة -أي الأوس و الخزرج -هذا صـاحبكم قد جاء» ،فخرجوا لاستقباله مكبرين ،ثم نزل على كلثوم بن الهدم ، ومكث في قباء مدة أربعة أيام بنى خلالها أول مسجد أسس على التقوى، ثم لحق به علي بن أبي طالب بعد أن رد الأمانات إلى أهلها.

هـــ- النبي – صلى الله عليه و سلم- إلى المدينة في :12/ربيع الأول /622/09/25 : فلما كان يوم الجمعة ركب ناقته و قصد المدينة فأدركته الجمعة عند بني عوف فصلاها في مسجدهم ،ثم واصل رحلته فوصلها عند الأصيل و خرج سكانها الكبار والصغار الرجال والنساء لاستقباله مكبرين: «الله أكبر جاء رسول الله ،الله أكبر جاء محمد -صلى الله عليه و سلم-» مكررين ذلك وبعضهم ينشد: « **طلع البدر علينا** ». ابن كثير/3/196-197 ، و تنافست العشائر من الأوس الخزرج فيما بينها في أن تأخذ بزمام ناقته لتكون إقامته بينهم فكان يقول لهم : «**خلو سبيلها فإنها مأمورة** » ،فكان كلما مرعلى حي عرضوا عليه أن ينزل حيث العدد والعدة والمنعة فكان يكرر عليهم قوله الســـابق ،حتى إذا أتت الناقة مربد -مكان كان يجفف فيه التمر - لغلامين يتيمين من بني النجار فبركت فيه ، وأخذ أبو أيوب الأنصـــاري رحله -أمتعته- فأدخله منزله و نزل عنده حتى بنى منزله فتحول عنه، فكان من توفيق الله إياه أنه كان يحب أن ينزل عند أخواله بني النجار فبركت ناقته في حيهما /ابن هشـــام /السيرة /485/1 ، ابن كثير/ البداية والنهاية/3/166-167وما بعدهما .

4. ذكر بعض الحكم في هجرته -صلى الله عليه و سلم-:

1-اتخاده –صلى الله عليه و سلم- كل الوسائل و الأسباب لإنجاح الهجرة من سرية في الإعداد وكتمانه للأسرار عدا على أبي بكر.

2- استعانته بأهل الخبرة والكفاءة ولو كان مشركا باستئجاره لعبد الله بن أريقط الذي كان على معرفة تامة بالطرق المؤدية إلى المدينة.

3- حرصه –صلى الله عليه و سلم- على رد الأمانات إلى أهلها ولو كانوا ممن يعادونه فهو أمين مع أعدائه ومع أصحابه.

4- إطلاعه على ما تخططه قريش عن طريق تسمع أخبارها من قبل عبد الله بن أبي بكر ،ليخطط وفق المستجدات حرصا منه على إ نجاح الهجرة .

5-تأييد الله لنبيه بالحماية والنصرة في داره عندما خرج على المحيطين به ، وفي الغار ،وفي إعاقة سراقة بن مالك من أن يُلْحِقَ به أدى ،ثم أصبح من المناصرين له يدفع عنه و يصرف الناس عن اتباع الطريق الذي سلكه .

6-و الذي يستفاد أيضا أن الهجرة لم تكن هروبا من القتل بعد أن أحيط بداره وكذا بالنسبة لأصحابه إذ أن هناك من القراء الذين يربطون الوقائع بالزمان يحسبون أن هجرة النبي ρ كانت عندما أرادوا قتله ،كلا أبدا إذ الاقتران حصل و النبي –صلى الله عليه و سلم- يعد العدة و قد أخبر أبو بكر بإذن الله له و أمره أن يدعو بالآيات التي مرت الإشارة إليها .

7-إن دواعي الهجرة هي انعدام النصرة «**إلا تنصره فقد نصره الله**» وقوله تعالى أيضا : «**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ...** » إلى قوله «**وينصرون الله و رسوله**» ، فبينت الآيات السبب والهدف هو نصرة الله ورسوله بنصرة دينه.و الذي يقال عن النبي ρ يقال عن المهاجرين ومن تبعهم بعد هجرته ρ لم تكن فرار من مواجهة الصعاب والإخلاد إلى الراحة ، وإنما كانت من أجل تحقيق الهدف السابق الذكر وهو قتال من قاتلهم والرد على من ظلمهم و آداهم ويؤكد هذا أيضا ما جاء في ميثاق المدينة " «**هذا كتاب من محمد النبي رسول بين المؤمنين و المسلمين من قريش وأهل يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم** »./ابن هشام /السيرة/501، أبو عبيد القاسم /الاموال/202

8-حرص النبي ρ على تأمين أرواح اتباعه فبقائهم بقاء للدين واستمرار للدعوة بتقديمهم في الهجرة حدبا عليهم وانتظارا لأمر ربه بالهجرة فلما خرج أكثرهم أذن الله له ، و شبيه بهذا ما كان يفعله في غزواته فعند الزحف يكون في المقدمة وعند العودة إلى الديار يكون في المؤخرة ،يحمل من يضعف به مركوبه و يساير من تعب

9-تصديق الأنصار لأقوالهم على ما عاهدوا عليه النبي ρ بأفعالهم بالتأييد و النصرة والمواساة والإيواء لأتباعه من المهاجرين ،و يدل هذا على صحة دينهم و قوة إيمانهم وسلامة سرائرهم من الأهواء و المطامع ضاربين المثل العملي على محبتهم لله ورسوله فمواساتهم لأصحابه مواساة له ونصرة له و للدين، فكان جزاء ذلك أن أثنى عليهم المولى عز وجل فقال :(...**و الذين نبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة**)/الحشر /9 . و لا يثني الله إلا على من كان أهلا للثناء.

10-شدة و فاء المسلمين المهاجرين لدينهم والتضحية بالوطن والأهل والمال في سبيل أن يبقى لهم دينهم 11-و جوب الهجرة على كل مسلم إذا أودي في الله ومنع من ممارسة أداء شعائر الإسلام إلى دار يأمن فيها على دينه وعرضه و نفسه وماله .

12-تقديم أخوة الدين على أخوة النسب في الموالاة والنصرة بين الأنصار والمهاجرين مهما اختلف الديار والانتماءات القبلية والعرقية./ أبو زهرة/خاتم النبيين/1 /645-و ما بعدها - البوطي /فقه السيرة/183و ما بعدها - الغزالي/فقه السيرة/170 و ما بعدها

تلك هي بعض الحكم التي تستفاد من الهجرة ، فهي خطوة بارزة و تحول هام في مسيرة الإسلام إذ فرقت بين الحق والباطل و لأهميتها لم يجانب عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ الصواب عندما اتخذها مبدأ لتأريخ الأحداث التاريخية أيام خلافته، إذ كان من نتائجها قيام دولة إسلامية في المدينة المنورة ليس للشرك عليها سيطرة، ثم كان ما تلى ذلك من استكمال قواعد الإسلام و تطهير الأرض من الشرك....الخ .